
ثلاثية نجيب محفوظ
بقلم المستشرق
الأب ج . جوميه
بين القصرين
نجيب محفوظ
السكرية
نجيب محفوظ
قصر الشوق
نجيب محفوظ
مكتبة مصر

ثلاثية نجيب محفوظ

بقلم المستشرق
الأب ج . جوميه

نقل البحث الى العربية
الدكتور نظمى لوقا

يطلب من :
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى "الفجالة"

دار مصر للطباعة
٣٧ (٩) شارع كامل صدقى "الفجالة"

ليست قراءة الروايات ، وتقليب صفحات المجلات الفنية ، وشهود الأفلام القيمة بالتزجية الطيبة للوقت فى عصرنا هذا فحسب ، بل انها كذلك حين تتعلق بأعمال أجنبية تزيد فى معرفة أذواق أهل الحضارات المباينة لحضارتنا (الغربية) ومعرفة مواهبهم .

وما من شك فى أن كل عمل فنى فيه نصيب من الخيال ، ومن الابتداع الذى خلقه الفنان خلقا ، ولكنه ـ فيما عدا حالات نادرة جدا ـ يعكس أيضا جانبا من الواقع ، حتى ولو لم يكن هذا الجانب سوى روح الفنان نفسه ..

وهناك ثلاث روايات يكمل كل منها الأخريين ، ظهرت فى القاهرة بين سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٥٧ ، وتستحق التنويه على هذا الأساس ، ومؤلفها الأستاذ نجيب محفوظ كاتب روائى نابه الصيت من قبل هذه الثلاثية . واحدى رواياته (زقاق المدق) ظهرت سنة ١٩٤٧ ، ولفتت النظر بما فيها من حيوية ، وقررت جامعة القاهرة منذ بضع سنوات دراستها كنص أدبى لطلاب ليسانس الآداب (قسم اللغة العربية) .

وعلى الرغم من كل مايتمتع به من مزايا السرد ، وتقديم التفاصيل المعبرة التى تساعد على رسم الجو الفنى ، وسوق الحوار فى انسياب متسق ، وايراد اللمحة التى تضىء أو تثير الضحك ، لم يكن المؤلف يبدو للناس سوى روائى بين الروائيين ، أو على الأصح بين أفضلهم .. ولكن ثلاثية الأستاذ نجيب محفوظ الأخيرة فرضت نفسها على ألباب الناس كافة .. ولم تضن الصحافة والاذاعة بالثناء العاطر عليه . حتى أن بعض النقاد فى القاهرة يعتبرونه الآن خير روائى عرفته الآداب العربية الى يومنا هذا ...

وليس الاطار العام للثلاثية بالشىء الجديد حقا ، فهو يتقصى فيها حياة أسرة قاهرية فى حقبة من الزمن تكفى لظهور معالم شخصياتها الرئيسية ظهورا بيّنا .

ان الاهتمام بالواقعية موجود أيضا عند سواه ، بيد أن الجديد حقا هو استخدام الواقعية ومناهجها على نطاق واسع هذا الاتساع ، وبهذه الدرجة من الأستاذية ، فى مجال الحياة المصرية ..

والأسرة التى يروى الأستاذ نجيب محفوظ حياتها من تلك الأسر الاسلامية التى تنتمى الى الطبقة البرجوازية الصغيرة وترتزق من التجارة ، وتسكن الأحياء المتاخمة لمسجد سيدنا الحسين بالقاهرة . ويتناول المؤلف حياة

هذه الأسرة منذسنة ١٩١٧ الى سنة ١٩٤٤ ، مبينا اضطراب وانقلاب الأفكار والأخلاق ، وذلك التغير الذى شمل أسلوب الحيــاة فى الطبقات المتوســطة هناك فى مدى خمس وعشرين سنة .

والأب المســتبد الشهوانى ، والأم الخانعــة المنقادة يبدوان لنا وكأنهما من دنيا غير دنيانا . ولكن كثيرين من المصريين المسلمين الذين عرفوا هذه البيئات أكدوا لنا أن هاتين الشخصيتين ليستا من خلق الخيــال كلية ، فهناك أنماط من الناس بهذه الصفات كان المرء يلتقى بهم فى تلك الأحياء منذ ردح غير طويل ..

ونجيب يتعقب فى ثلاثيته ببطء شديد تلك الأسرة ، مدققا فى الملاحظة والوصف ، ثابت القدم ، هادئا متزنا . ولكنه فى أكثر من موضع كان يلح فى ابراز التوازى بين مستوى التطور الخلقى العائلى ومستوى التطور السياسى فى مصر . فكما كان الأبنــاء يتحللون شــيئا فشيئا من سيطرة الآباء ، كانت مصر كذلك تتحلل من الســيطرة البريطانية .

ويتحدث المؤلف عن الأحداث السياسية التى وقعت فى مصر بين سنة ١٩١٧ وسنة ١٩٤٤ ، ويصورها لنا كما تتراءى فى الأحياء البلدية حيث تسكن أسرتنا ، وكما تراءت للألوف من الرجال والنســاء من أبنــاء الطبقة

الوسطى الصغيرة ، فمنهم من لا يجسر على التفكير فى الاستقلال ، ومنهم ــ ولاسيما الشباب ــ من يتحمسون للحركة الوطنية التى كان سعد زغلول بطلها وقائدها .

ولا يغفل المؤلف أزمات الضمير المروعة التى كانت تثيرها أحيانا احتكاكات بعض المصريين ببعض وجوه التفكير الأوربى ، من نزعة علمية فى مبدأ الأمر ، ثم النزعة الماركسية بعد ذلك .

وقصارى القول ان نجيب محفوظ استطاع عن طريق تصوير حياة هذه الأسرة أن يعالج بصراحة تامة وعمق شاف جميع المشكلات التى اعترضت حياة الطبقة البرجوازية القاهرية الصغيرة أمس ، وأول من أمس .

وهدفنا من هذا البحث تقديم لمحة سريعة عن حياة الأستاذ نجيب محفوظ وعمله الأدبى ، ثم نتعرض فى افاضة لسيكلولوجية أشخاص ثلاثيته المختلفين ، ونختتم البحث بالكلام عن العبرة التى تستخلص من رواياته الثلاث جملة ...

ولا تخلو الروايات من جو الكآبة ، فكل رواية منها تنتهى بموت فاجع أو القاء القبض على بعض شخوصها . ولكن يجب أن نذكر أيضا أن مصر فى هذه الفترة من تاريخها كانت واقعة تحت نير الذل والاحتلال والاستبداد ،

وتتمخض بالثورة والتمرد ، وتجتاحها الأوبئة والحميات التى تتخطف الناس من جميع الأسر .

وعلى الرغم من هذه الكآبة ، فان بها من الأمل فى المستقبل ، وروح الفكاهة مايجعلها صورة صادقة للعصر وحياته ...

وأقصى ما نلاحظه أن الاستقلال لم يكن قد تم فى سنة ١٩٤٤ حيث تنتهى الرواية الثالثة ، وأخطر ما فى الأمر أن الشباب فيها بات منقسما على نفسه ، يتلمس طريقه . ورغم اجماعهم على شجب الاحتلال ، لم يجتمع رأيهم على مثل أعلى واقعى ملموس .

ونعود الى المؤلف ، فنذكر انه أثبت بروايته زقاق المدق فى سنة ١٩٤٧ انه ذوقدرة عظيمة على رسم المواقف الفكهة ، وها هو يثبت قدرته فى ميدان أدبى آخر أشد رحابة وتعقدا . وعمله هذا الأخير يعتبر حقبة جديدة فى الأدب العربى ، وهو جدير بأن يذاع ويعرفه الناس فى خارج البلاد العربية .

لمحة عن حياة الأستاذ نجيب محفوظ وأعماله الأدبية

ولد الأستاذ نجيب محفوظ فى سنة ١٩١٢ ، ومسكن أبويه عندئذ فى حى الجمالية ، وهو من أقدم أحياء القاهرة التى تحيط بمسجد سيدنا الحسين . ولما كان فى السادسة من عمره انتقل والداه للسكنى فى العباسية . وفى سنة ١٩٣٠ دخل جامعة القاهرة فأمضى فيها أربع سنوات بقسم الفلسفة . وحصل منها على الليسانس سنة ١٩٣٤ ، وفى أعقاب ذلك مباشرة شرع يكتب فى مجلة الرسالة .

وهناك ارتباط خاص بين نجيب محفوظ والأماكن التى تردد عليها أو عاش فيها . فخمس من رواياته على الأقل تجرى أحداثها غير بعيد من مسجد الحسين ، وشخصياتها من المحيطين بذلك المسجد ، سواء منهم الفقراء والدراويش الذين يقومون الليل هناك ، أو التجار الذين تحف متاجرهم به ، مواظبين على أداء الجمعة فيه ، أو الزوار الذين يحجون الى مقام ابن بنت الرسول متوسلين اليه لقضاء حاجاتهم . واذا ابتعد واحد من

شخوص روايته عن الحسين ، فليقضى بعض الوقت فى العباسية ، فى بيت أحد ثراتها على مشارف الصحراء . بل ان المقبرة التى تتاخم الشارع المفضى من سيدنا الحسين الى العباسية تظهر كذلك فى احدى رواياته . فقد كان المؤلف يمر كثيرا بتلك المقبرة حين يذهب للعب مع الصغار فى الرحبات الكثيرة المنتشرة هناك .

وكان نجيب قد نشر فى سنة ١٩٣٢ ترجمة كتاب انجليزى عن مصر القديمة ، وفى سنة ١٩٣٨ نشر مجموعة أقاصيص . وبعد ذلك نشر رواياته التاريخية الثلاث :

- عبث الأقدار سنة ١٩٣٩ .
- رادوبيس سنة ١٩٤٣ .
- كفاح طيبة سنة ١٩٤٤ .

بيد أنه عدل عن الاتجاه التاريخي فى رواياته ، واتجه الى الاطار العصرى فى « القاهرة الجديدة » سنة ١٩٤٥ ، و « خان الخليلى » سنة ١٩٤٦ . والأخ الأكبر لبطل الرواية أعزب فى الأربعين من عمره ، لم يتزوج ليرعى شئون أسرته ويعولها ، وهو ذو وجه لطيف ، وأن يكن قليل الثقة بنفسه . ولعل نجيب محفوظ كان يفكر فى نفسه شخصيا وهو يرسم هذه الشخصية ..

وفى سنة ١٩٤٧ نشر رواية « زقاق المدق » ، وهو اسم حارة صغيرة قريبة من مسجد الحسين ، وتجرى

حوادثها أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥) التى تنعكس على ذلك العــالم الضيق المحدود الذى يعيش فيه سكان الزقاق . والرواية حافلة بالشخوص الحية القريبة من النفس ، وتصور الجو العجيب الذى يدور ليلا فى ذلك الحى ، ولا سـيما بين المتسولين وأصحاب العاهات ، وصانع العــاهات العجيب « زيطه » . وفى هذه الرواية فن سيكولوجى ونظرات ثاقبة حقا ، وروح فكاهة نابضة بالحياة .

ويغادر الزقاق شابان من أهله ليعملا مع الانجليز ، أحدهما ابن القهوجى الذى ضاق بما يدور حول والده وسمعته المريبة ، والآخر الحلاق الذى أغراه الــكسب السهل عسى أن يدخر شــيئا يتزوج به . ولكن جارته الحسناء التى أراد أن يتزوجها جرفها تيار الغواية الطاغى فى هذه الفترة فهجرت الزقاق لتعمــل فى الملاهى التى يؤمها الجنود الانجليز وجيوش الحلفــاء . وينتهى كل شىء بموت الحلاق حين هجم على البار الذى تعمل فيــه محبوبته ، فسقط فى المعركة قتيلا ..

وفى سنة ١٩٤٨ نشر الأستاذ نجيب رواية « السراب » وهى تدور حول عقدة العجز الجنسى ، وفى سنة ١٩٤٩ نشر رواية « بداية ونهاية » .

وأعقبت فترة صمت طويلة ذلك الانتــاج المتلاحق .

ودام الصمت سبع سـنين ، الى أن ظهرت ثلاثية نجيب التى نود الكلام عنها هنـا . المجلدات الثلاثة هى على التعاقب والترتيب :

- بين القصرين سنة ١٩٥٦ .
- قصر الشوق سنة ١٩٥٧ .
- السـكرية سنة ١٩٥٧ .

ومجموع صفحاتها يبلغ ألفا ومائتى صفحة من البنط الدقيق ، واليكم مضمونها بايجاز :

١ — بين القصرين

والعنوان اسم شـارع فى القـاهرة ، فيه بيت أسرة عبد الجواد ، فى مواجهة سـبيل عبد الرحمن كتخدا ، على مسـيرة خطوات من تلك المجموعة من المسـاجد التاريخية التى أشهرها جامع قلاوون .

وتجرى أحداث هذه الرواية فيما بين سنتى ١٩١٧ ، ١٩١٩ . وهى تروى قصة حياة أسرة من الطبقة البرجوازية التجارية الصغرى ، المستمسكة بالتقاليد ، وتسيطر على الأسرة كلها شخصية ربها السيد احمد عبد الجواد ، ذلك الأب المستبد الصارم الأنانى الذى يبدو وكأنه ولا قلب

له ، بيد أنه لا يخلو من الاحساس بمسئولياته من بعض النواحى ..

ويلوح لأول وهلة أن هذه الرواية لا تعنى الا بحياة هذه الأسرة ، من أب وأم وخمسة أطفال . وفى مطلعها فصول طوال عن الحياة اليومية لتلك الأسرة ، ثم تبدو أمارات التمرد ، ممثلة فى قرار الأم « أمينة » أن تذهب لأداء الصلاة فى مسجد الحسين ، الذى لا يبعد أكثر من عشر دقائق عن بين القصرين . فالمرأة المسكينة — وهى بنت شيخ من أشياخ الأزهر — ظلت طيلة العشرين سنة التى قضتها فى هذا الشارع تشعر بشوق شديد الىزيارة حبيبها الشهيد المقدس فى مسجده القريب منها على قيد النظر ، بيد أن زوجها ، ذلك السجان الرهيب كان يحول بينها وبين تلك الأمنية . وفى طريق عودتها من المسجد صدمتها سيارة ، فهيضت ساقها ، فاستحال كتمان هذا العصيان الذى أقدمت عليه فى غفلة من السجان . وكادت هذه الفعلة أن تؤدى الى الطلاق . اذ بعث بها زوجها الى بيت أمها ، وسويت المسألة بعد ذلك .

وتتلو هذا غراميات ابنى أحمد عبد الجواد . وأكبرهما ياسين شهوانى ، وهو بكر أولاد الرجل من زوجة سابقة، وموظف كتابى زئر نساء ، مولع بالساقطات والقريبات المنال . لا يكاد يعرف من ذلك المنهل الكدر شبعا . ونجد

كذلك الفتاة عائشة ذات السبعة عشر ربيعا تختلس من وراء الوصاوص نظرات الى ضابط حديث السن من ضباط البوليس يمر فى الشارع ، وهذا أقصى ما تستطيعه فتاة تحت حكم الحريم القاسى . وأما فهمى ، ففى التاسعة عشرة ، لطيف الحس ، خجول ، ونراه يتدبر الأمر بحيث يراجع لشقيقه الصغير كمال دروسه على سطح البيت ، ساعة الغروب ، وهى الساعة التى تصعد فيها بنت الجيران مريم صديقة أختيه الى سطح بيتها لتنشر غسيلها فى تباطؤ مقصود ... وفى حذر شديد يتراشق الشابان بالنظرات ، ولكن فى محاذرة بالغة . فأى شك يحوم حول أمرهما قمين أن يثير فضيحة ضخمة ! ويحاول العاشقان أن يذهبا الى أهليهما بعقد خطبتهما ، ولكن هذه المحاولات تذهب أدراج الرياح . فوالد فهمى هو الذى يزوج أبناءه ، وهو يرفض عقد هذا الزواج رفضا حاسما .

وأخيرا نرى ياسين وأختيه خديجة وعائشة يتزوجون تباعا . زيجات فرضها الأب ، ولم تكن لأحد من ثلاثتهم فيها ارادة أو رأى . وجر النسيان ذيوله على الضابط الشاب . وحينما يرتكب ياسين أخطاء فاحشة فى حق عروسه بنت صديق أبيه وصفيه ، فأبوه هو الذى يقرر طلاقه لا هو !

وهذا الجزء من الرواية قد أعد باحكام شديد بحيث

تلقى كل واقعة من الوقائع المتعاقبة ضوءا على شخصية أحمد عبد الجواد الصارمة القاسية المستبدة . فنراه فى هذا القسم رجلا متزمتا فى بيته ، حريصا على أوقات الصلاة . بيد أن له شخصية أخرى لا يعرف عنها أهل بيته شيئا . شخصية تبدو للناس فى خارج بيته متى أرخى الليل سدوله، فاذا رجل أخو كأس ووتر ، حليف صبوة وسمر ، يعشق الطرب والمنادمة واللذات الأخر ...

وتبدى لنا الرواية الأثر العميق الذى يتركه تكشف هذا الوجه الآخر من حياة الأب لعينى أعضاء أسرته . وتتبين أيضا مسارب الوراثة من هذا الأب ذى الحياتين الى فريق من أبنائه ، فهذا ياسين قد ورث عنه يقظة الحس وشهواته العارمة ، وهذه ابنته خديجة ورثت عنه صلابة الرأى والاستبداد .

ثم تأتى مرحلة المظاهرات الوطنية بين سنة ١٩١٨ وسنة ١٩١٩ ، على أثر توقيع الهدنة فى أوربا . وطالب المصريون بالاستقلال ، فردهم الانجليز ردا عنيفا ، وسقط فى هذه المظاهرات قتلى كثيرون .

وقد خصص القسم الثانى من الرواية لهذه الحقبة ، بحيث نرى أحداثها من خلال شخوص أبطال الرواية . وتكتشف الأسرة شيئا فشيئا نشاط فهمى السياسى ، فقد كان عضوا فى لجنة الطلبة . وثار غضب الوالد المستبد ،

ومع أن هذا الوالد وطنى لا غبار على وطنيته ، فقد رأى فى اشتغال ابنه بالحركة الوطنية من غير اذنه خروجا على طاعتــه لا يغتفر . فالأب هو الذى يقرر وحــده مصائر واتجاهات جميع أعضاء الأسرة . وصمد فهمى للعاصفة ، ونرى الأب لايقوى على فرض ارادته لأول مرة فى حياته ، وتنتهى حياة فهمى شــهيدا فى احدى المظــاهرات . ومن المفارقات ان هذه المظاهرة التى قتل فيها قامت بترخيص من الانجليز على أثر اطلاق سراح الزعيم سعد زغلول من منفاه فى جزيرة مالطة .

ومن المستحيل طبعا أن نقدم هنا جميع تفاصيل الرواية. فما من تلخيص يغنى عن مطالعتها ، كى يعيش القارىء مع هــذه الأسرة ويعايشها فى انفعالاتها المتباينة ، الخاصــة والعامة . فكل صفحة من الرواية لوحــة بديعة التصوير والتلوين ، نابضة بالحياة الطبيعية على سجيتها . ومن هذه التلاوة المدققة وحــدها سنرى كيف أن أمينة الزوجــة الخاضعة المنقادة كانت فى الحق حجــر الأساس فى ذلك البيت ، ولولاها لكانت الحياة فيه لا تطاق . فبفضلهــا وحدها ظلت الأسرة متماسكة ، سعيدة متحابة . وحولها ، فى مجلس القهوة ، يجتمع شمل الأسرة كل عصر ، بأكملها ، فيما عدا الأب الذى يعود الى متجره ...

٢ ـ قصر الشوق

وهو اسم الشارع الذى يقع فيه بيت ياسين بكر أبناء أحمد عبد الجواد ، وهو قريب من بين القصرين . وتجرى حوادث هذه الرواية ما بين سنة ١٩٢٤ و سنة ١٩٢٧ ... ومعنى هذا أن القارىء يلتقى فى مفتتح هذه الرواية بأسرة عبد الجواد وقد غبرت عليها خمس سنوات .

ويقدم الأستاذ نجيب محفوظ الأسرة من جـديد كما قدمهـا فى مطلع بين القصرين ، فيطلعنا على تفاصيل يوم نموذجى من حياة هذه الأسرة ، فى مواقف متعاقبـة بين أفرادها .

وهذا المنهج الرائع يبين لنا عن طريق المقارنة بين مطلعى الروايتين ، مدى التغير الذى طرأ على هذه الأسرة ...

وبعد أن انتهى نجيب من هذه البداية، تدفقت حوادثها، وسنرى منها أن أحمـد عبد الجواد ارعوى شيئا ما عن استبداده ، وترك لأهل بيته جانبا من الحرية لم يكونوا ليطمعوا فى الحصول عليه . والحق أن قارعة موت ابنـه فهمى أثرت فيه ، فكف منذ سنة ١٩١٩ عن التردد على العوالم . ولا سيما وزنوبة العوادة الشابة قد سخرت من كهولته ، فأدرك أن شبابه أفل . ثم انتابته علة شديدة ، ما أن نهض منها حتى أيقن أن عهد الصبوات قد ولى ...

وتتحدث الرواية أيضا عن حياة الفتاتين خديجة وعائشة بعد زواجهما من أخوين . وسنراهما سعيدتين على الرغم من مناوشات حماتهما التركية .

وسنجد أن ياسين لم يقـدم على الزواج منذ طلاقه فى سنة ١٩١٨ ، بيد أن سلوكه لم يزل شهوانيا كما كان . ثم نراه بعد قليل يتزوج مريم بنت الجيران ، ويستقر معها فى بيته الموروث فى قصر الشوق . ولكن الزواج لم يعمر ، وسرعان ما طلقهـا وتزوج زنوبة العوادة التى كان أبوه متيما بها فيما مضى . أما كمال الذى نال البكالوريا سنة ١٩٢٤ فنستطيع أن نعتبره بطـل هذه الرواية الثانيـة . وسنجد صداقته لابن عائلة أرستقراطية هى عائلة «شداد». قد جذبته الى بيئة جديدة ، وسنراه يحب أخت صديقه عايدة حبا أفلاطونيا مثاليا متقـدا . وسيترك هذا الحب اليائس أثره الباقى فى حياة كمال بعد ذلك .

وتنضاف الى هذه الأزمة العاطفية أزمة دينيـة ، لأن نظرية التطور التى تسربت الى مصر أحدثت فى تفكيره يقظة من نوع خاص ، ترتب عليها فقـدانه ذلك الايمان الأعمى الذى تلقنه من أمه أمينة .

وختام هذه الرواية مؤس حقا . فعائشة تفقد زوجها وولديها فى وباء التيفود . ولا تبقى لها الا نعيمة ، الصغيرة الدقيقة التكوين الضعيفة الصحة ، ذات الأعوام الثمانية .

وأما السياسة المصرية فنراها من خلال مناقشات كمال مع أصدقائه . وكمال يقدس سعد زغلول ، الذى تقفل صفحات الرواية على نبأ وفاته فى أغسطس سنة ١٩٢٧ .

٣ـ السكرية

والسكرية اسم الحارة التى يقع فيها بيت زوج خديجة، فى مواجهة بوابة المتولى (أو باب زويلة كما تسمى فى بعض الأحيان) وتجرى حوادثها ما بين سنة ١٩٣٥ وسنة ١٩٤٤ .

أما عائشة التى كانت تسكن السكرية فى حياة زوجها ، فقد انتقلت بعد وفاته فى سنة ١٩٢٧ الى بين القصرين ، ومعها ابنتها نعيمة .

وفى هذه الرواية نصل الى ختام حياة الوالدين . أما الأب أحمد عبد الجواد فيقضى نحبه فى منتصفها . وتموت الأم فى نهايتها .

وهنا سنلمس ما طرأ من تغير على حياة البرجوازية الصغيرة ، فالكهرباء والمذياع يدخلان البيت القديم ، ويرفهان كثيرا عن أحمد عبدالجواد فى مرضه الأخير، وهو الولوع بالطرب والغناء . فيجد بجوار فراشه دواما صوتا يغنى بهذا اللحن أو ذاك .

وحتى قبل مرضه هذا ، كانت نشوة الشباب قد ولت عنه وعن رفاقه وأخدانه ، فاذا اجتمعوا للسمر فهي الكأس الواحدة لا تزيد لواحد منهم هو أصغرهم سـنا ، وأما البـاقون ففي أكواب الشاي لهم غناء سـواء أحبوا أم كرهوا .

وسنرى أحمد عبدالجواد يدع للشباب زمنهم وحياتهم، ولا يفرض ارادته الا فى أمر واحد ، هو آخر ما يمارسه من سلطانه القديم ، ألا وهو توقيف نعيمة عن الدراسة بعد حصولها على الشهادة الابتدائية ، فلزمت البيت دمية جميلة رقيقة عذبة الغناء ، ولكنها متدينة لا تفوتها أوقات الصلاة .

وقد غير انشاء الجامعة فى القاهرة شيئا كثيرا من أوضاع الحياة المصرية ، فنرى ابنى خديجة يلتحقان بها للحصول على الليسانس ، وتحدثنا الرواية عن الطالبـات اللواتى يدرسن مع الطلبة ، ذاهبات جائيات تحت أنظارهم المشدودة اليهن ، وكيف ينتحل الطلاب المعاذير المدرسية للتحدث الى هذه منهن أو تلك .

ويقيم أستاذ انجليزى حفل شاى فى حديقـة ڤيلاه فى المعادى للطلبة والطالبات فى قسمه ، وهنا نلمس الفارق الضخم بين هـذا الموقف وبين حال فهمى وهو يختلس

النظرة من مريم على السطح ، أو حال ياسين فى هجماته الغرامية الداعرة .

وكما عجز استبداد أحمد عبدالجواد عن كبح انطلاقات بنيه ، عجزت ابنته المستبدة خديجة عن كبح انطـلاقات ابنيها الجامعيين ، فأصبح أحدهما عبد المنعم من الاخوان المسلمين ، ونراه يتزوج وهو طالب كى يصير « محصنا » من نعيمة بنت خالتـه وعمه ، وتموت فيتزوج بنت خاله ياسين من زنوبة . وأما أخوه أحمد فيقفو أثر خاله كمال وينفض عنه الأفكار الموروثة والعقائد الغيبية ، ويتزوج فتاة ملحدة شيوعية مثله .

وأما ابن ياسين ، رضوان ، فنراه يصعد سلم الوظائف وثبا لوسامته وصلاته الشخصية جدا بكبراء الدولة !

ونرى كمال مستمرا فى اتجاهه الفكرى ، وعزوبته ، يكتب المقالات وتبسيطات الفلسفة فى المجلات ، عازفا عن الزواج نتيجة لصدمته العاطفية فى صدر شبابه . وتصل اليه أنباء افلاس آل شداد ، ثم يرى أخت عايدة الصغرى بدور وقد صارت طالبة شابة ، ويتردد على صديق قبطى يشاركه آراءه التقدمية الالحادية . ويكتفى تحت الحاح حاجاته العضوية بزيارة مومسة من مومسات بيت للدعارة افتتحته عالمة من صاحبات أبيه القدامى بعد أن طعنت فى السن .

وتستعرض الرواية الأحداث السياسية من موت الملك فؤاد ، الى توقيع المعاهدة مع انجلترا ، الى اندلاع الحرب العالمية الثانية، الى انذار ٤ فبراير وموقعة العلمين، ولكن من خلال انعكاس تلك الأحداث على حياة الأسرة وأفرادها.

وأخيرا نرى ابنى خديجة وقد ألقى القبض عليهما بسبب نشاطهما السياسى تحت ضغط الانجليز ، ويزج بهما فى معسكر من معسكرات الاعتقال .

وتصل الثلاثية الى ختامها عند ما تموت أمينة بعد حياة كانت عماد هذه الأسرة وسر تماسكها ...

وكمال ... يسدل عليه الستار وهو خائر النفس ، متردد ، لا يصيب نجاحا مذكورا فى كتاباته . لأن حياته ظلت مفتقرة الى المرأة التى تنيرها بذكاء قلبها وحنانها وثقتها . فظل موزع النفس بين قديم الشرق وجديد الغرب، بل بين جذور التقاليد ورياح التحرر . ولذا بقى مترددا لا يدرى أيان يمضى . فى حين اتجه ابنا أخته وجهتين واضحتين على اختلافهما البين : اتجه أحدهما الى التقاليد فأصبح أخا مسلما ، واتجه الآخر الى الغرب فأصبح شيوعيا وتزوج زميلة مكافحة ...

وها هنا تقف بنا الثلاثية .

وهى بحاجة الى رابعة تصلنا بالفترة الجديدة من حياة مصر الاجتماعية . ولكن هذه الرواية قد لا تتسنى كتابتها قبل أعوام تتبين فيهـا ملامح هذه المرحـلة الخطيرة التى كافح فى سبيلها عبد المنعم وأخوه أحمد ، كل منهمـا فى اتجاه ...

شخصيات الثلاثية

بالغة ما بلغت موهبة الرواية لدى نجيب محفوظ ، وبالغا ما بلغ فنه الموفق فى تشويق القراء لمتابعة حوادث روايته ، فان الأهمية الأولى للثلاثية قائمة فى مجالها السيكولوچى ، وهذا على الأقل ما يتراءى لنا . فالثلاثية تموج بالأنماط الانسانية ، ونعتقد أن الدراسات الفلسفية التى بدأ بها شبابه أتاحت له صدق الحس فى التحليل النفسى ، فأدرك الصلات العميقة بين مواقف قد يراها غيره أشتاتا متفرقة لا يجمعها رباط . نعتقد كذلك أن تعليمه الجامعى أتاح له القدرة على تذوق الآداب الأجنبية ، فأخذ عنها فنية الرواية . بيد أنه هضم تلك الفنية وسيطر عليها وسخرها لأغراضه فخرج عمله الكبير مصريا خالص المصرية . وحق لكثيرين من النقاد أن يحيوا فى نجاحه الأدبى ثمرة موفقة من ثمار جامعة القاهرة .

ولعل الصفحات السابقة قد زودتنا بلمحة عن الشخصيات المتباينة فى تلك الثلاثية ، وكيف تكشفت لنا سماتهم شيئا فشيئا تحت تأثير الأحداث .

وبقى علينا أن نتناول تلك الشخوص الرئيسية واحدا واحدا ، وننظر فيها وفى تكوينها وسماتها من حيث هى..

احمد عبد الجواد

ولأحمد عبدالجواد شخصيتان : شخصية الأب الصارم الوعر ، وشخصية النديم الخفيف الظل المحبوب من خلانه المقبل على ملذات الحياة .

وقد يتساءل المرء لأول وهلة : أيمكن أن توجد مثل هذه الشخصية ؟ وسنجد أن أحمد عبد الجواد ليس من طراز طرطوف ، فهو مخلص كل الاخلاص حين يؤدى صلواته الخمس فى أوقاتها كل يوم ، ومخلص فى قسوته زوجا وأبا ، ومخلص كذلك حين يكون فى صحبة خلانه متى سجا الليل .

وسرعان ما يدرك القارىء أن هذا التاجر الذى عاش فى القرن العشرين هو صورة للرجل بالمفهوم الذى كان سائدا فى الزمن الغابر للرجولة .

ولا شك فى أن أحمد عبد الجواد كان يصلح شخصية من شخصيات ألف ليلة وليلة ، حيث تكون للفحولة الصدارة على سائر المزايا الأخر ، ويرخى لها العنان فى الحدود التى يجيزها المجتمع ، وان لم يجزها الدين .

وهذه الفحولة تفسر اقباله على مجالس العوالم ،

وشغفه بصحبتهن ، وشرب الويسكى على أصوات غنائهن ، وما ينتهى اليه المجلس بصورة طبيعية فى آخر الليل .

وأحمد عبد الجواد كريم فى الحدود المفهومة لدى كبار التجار ، والحى كله يعرف عنه هذا . بيد أن هذا الرجل المرح الطروب فى الخارج ، سرعان ما يخلع هذا القناع ويرتدى قناعا آخر متى اجتاز عتبة بيته ، ويبدو لنا « الرجل الآخر » ، بملامح جامدة ، وعواطف باردة تبعث الرهبة فى آل بيته . وتتملكه غريزة السيطرة ، فهو صارم ، عنيف ، متزمت فى سياسة البيت . وارادته قانون لا يناقشه أحد ، ولا يقبل فى طاعته ترددا أو بادرة استقلال ...

وفضل نجيب محفوظ كبير فى ابراز جانبى هذه الشخصية المتناقضين فى الظاهر على طول مدى الثلاثية . بحيث نرى بوضوح مظاهر استبداده ، وكيف يخضع الجميع لها ، ولاتنال من ذلك الاستبداد الا وطأة السن ، وفعل الزمن الذى يخرج بنيه من سلطانه ، ويطامن من عنفوانه ، حتى ترتد الشخصيتان المتناقضتان فيه الى هدأة تقضى على المألوف من ثورانه ، فاذا مجرى واحد فى آخر العمر لتلك الحياة ، لا صراع فيه ولا تناقض .

وتبدأ الثلاثية بموقف يبرز استبداد الرجل وسيطرته

العارمة ، فنرى أمينة زوجه وقد استيقظت فى منتصف الليـل كدأبها منذ عشرين عاما لتكون فى انتظار عودة زوجها ، وقد سكن البيت الكبير وخفتت ضجة الشارع . وأحمد عبد الجواد سنه وقتئذ خمس وأربعون سنة . وهو فى هذه الليلة ، كدأبه كل ليلة ، ساهر مع خلانه .

ويترك المؤلف أمينة تنظر فى المشربية تتسـقط خطى العائد ، ويرجع بنا الى الوراء ، لنراها وقد تزوجت فى الرابعة عشرة من عمرها ودخلت هذا البيت . مات حموها وحماتها بعـد ذلك بقليل ، فكان على أمينة أن تعانى الوحدة منذ سدول الليل ونوم الصغار ، ويزيد من وطأة هذه الوحدة أن مخيلة أمينة مزدحمة بأحاديث العفاريت التى روتها لها العجائز وهى صغيرة . فكانت تقوم كل ليـلة بصاحبة الخادمة العجوز بتفتيش حجرات البيت عاليها وسافلها ، ثم تأوى الخادمة الى مرقدها فى حجرة الفرن .

والصفحات الأولى من الرواية تستحق التسجيل هنا بكل تفاصيلها :

« ولكى يطمئن قلبهـا اعتادت أن تطوف بالحجرات مصطحبة خادمتها مادة يدها بالمصباح أمامها فتلقى فى أركانها نظرات متفحصة خائفة ثم تغلقها باحكام ، واحدة بعد أخرى ، مبتدئة بالطابق الأول ، مثنية بالطابق الأعلى ،

وهى تتلو ما تحفظ من سور القرآن دفعا للشياطين ، ثم تنتهى الى حجرتها فتغلق بابها وتندس فى الفراش ولسانها لا يمسك عن التلاوة حتى يغلبها النوم . ولشد ما كانت تخاف الليل فى عهدها الأول بهذا البيت ، فلم يغب عنها — وهى التى عرفت عن عالم الجن أضعاف ما تعرف عن عالم الانس — أنها لا تعيش وحدها فى البيت الكبير ، وأن الشياطين لا يمكن أن تضل طويلا عن هذه الحجرات القديمة الواسعة الخالية . ولعلها آوت اليها قبل أن تحمل هى الى هذا البيت ، بل قبل أن ترى نور الدنيا . فكم دب الى أذنيها من همساتهم ، وكم استيقظت عن لفحات أنفاسهم . وما من مغيث الا أن تتلو الفاتحة والصمدية أو أن تهرع الى المشربية فتمد بصرها الزائغ من ثقوبها الى أنوار العربات والمقاهى وترهف السمع لالتقاط ضحكة أو سعلة تسترد بها أنفاسها .

ثم جاء الأبناء تباعا . ولكنهم كانوا أول عهدهم بالدنيا لحما طريا لا يبدد خوفا ولا يطمئن جانبا . وعلى العكس ضاعف من خوفها بما أثار فى نفسها المتهافتة من اشفاق عليهم وجزع أن يمسهم سوء ، فكانت تحويهم بذراعيها وتغمرهم بأنفاس العطف وتحيطهم فى اليقظة والمنام بدرع من السور والأحجبة والرقى والتعاويذ . أما الطمأنينة الحقة فلم تكن لتذوقها حتى يعود الغائب من

سهرته . ولم يكن غريبـا ، وهى منفردة بطفلها تنومه وتلاطفه ، أن تضمه الى صـدرها فجأة ثم تتصنت فى وجل وانزعاج ثم يعلو صـوتها هاتفة وكأنهـا تخاطب شخصا حاضرا :

ـ ابعد عنا ! ليس هذا مقامك ، نحن قوم مسلمون موحدون !

ثم تتلو الصمدية فى عجلة ولهوجة ..

وعندما طالت بها معاشرة الأرواح بتقدم الزمن تخففت من مخاوفها كثيرا واطمأنت لدرجة الى دعاباتهم التى لم تجر عليها سوءا قط ، فكانت اذا ترامى اليها حس طائف منهم قالت له بنبرات لا تخلو من دالة :

ـ ألا تحترم عباد الرحمن !.. الله بيننا وبينك فاذهب عنا مكرما !

ولكنها لم تكن تعـرف الطمأنينة الحقة حتى يعـود الغائب . أجل . كان مجرد وجوده بالبيت ـ صاحيا أو نائما ـ كفيلا ببث السلام فى نفسها ، فتحت الأبواب أم أغلقت ، اشتعل المصباح أم خمد .

وقد خطر لها مرة ، فى العام الأول من معاشرته ، أن تعلن نوعا من الاعتراض المؤدب على سهره المتواصل ، فما كان منه الا أن أمسك بأذنها وقال لها بصوته الجهورى فى لهجة حازمة :

ــ أنا الرجل . الآمر الناهى . لا أقبل على سلوكى أية ملاحظة ، وما عليك الا الطاعة . فحاذرى أن تدفعينى الى تأديبك .

فتعلمت من هذا الدرس وغيره مما لحق به أنها تطيق كل شيء ــ حتى معاشرة العفاريت ــ الا أن يحمر لهـا عين الغضب ، فعليها الطاعة بلا قيـد ولا شرط . وقد أطاعت ، وتفانت فى الطاعة ، حتى كرهت أن تلومه على سهره ولو فى سرها . ووقر فى نفسها أن الرجولة الحقة والاستبداد والسهر الى ما بعد منتصف الليـل صفات متلازمة لجوهر واحد . ثم انقلبت مع الأيام تبـاهى بما يصدر عنه سـواء ما يسرها أم ما يحزنها ، وظلت على جميع الأحوال الزوجة المحبة المطيعة المستسلمة ... »

وبعد ذلك بقليل يكتب الأستاذ نجيب محفوظ :

« بل قيل لها مرة أن رجلا كالسيد احمد عبد الجواد فى يساره وقوته وجماله ــ مع سهره المتواصل ــ لايمكن أن تخلو حياته من نساء . يومها تسممت بالغيرة وركبها حزن شديد . ولما لم تواتها شجاعتها على مشافهته بما قيل أفضت بحزنهـا الى أمها ، فجعلت الأم تسكن خاطرها بما وسعها من حلو الكلام ، ثم قالت لها :

ــ لقد تزوجك بعد أن طلق زوجته الأولى ، وكان بوسعه أن يستردها لو شاء ، أو أن يتزوج غيرك ثانية

وثالثة ورابعة ، وقد كان أبوه مزواجا ، فاحمدى ربنا على أنه أبقاك زوجة وحيدة .

ولو أن حديث أمها لم يجد مع حزنها وقت اشتداده ، الا أنها مع الأيام سلمت بما فيه من حق ووجاهة ، فليكن ماقيل حقا فلعله من صفات الرجولة كالسهر والاستبداد ، وشر على أى حال خير من شرور كثيرة ، وليس من الهين أن تسمح لوسواس بأن يفسد عليها حياتها الطيبة المليئة بالهناء والرغد ، ثم لعل ما قيل بعد هذا كله أن يكون وهما أو كذبا . ووجدت أن موقفها من الغيرة ، شأنها حيال المتاعب التى تعترض سبيل حياتها ، لايعدو التسليم بها كقضاء نافذ لا تملك حياله شيئا ، فلم تهتد الى وسيلة فى مقاومتها الا أن تنادى الصبر وتستعدى مناعتها الشخصية ، ملاذها الأوحد فى مغالبة ما تكره ، فانقلبت الغيرة وأسبابها ، كطباع زوجها الأخرى ، وكمعاشرة العفاريت ، مما تحتمل . »

لقد رضخت أمينة اذن ، أما بنوها فلم يكن لهم فى الأمر خيار . فلا مناص لهم من الرضوخ أيضا ، فنرى فى « بين القصرين » كيف يعامل احمد عبد الجواد ابنه كمال ، وهو فى سن الحادية عشرة ، ساعة الافطار الذى يتناوله مع بنيه الثلاثة دون سواهم :

« ولم يكن غريبا أن يقطع السيد الفترة القصيرة التى

تسبق مجيء الأم بصينية الطعــام فى تفحص أبنائه بعين ناقدة ، حتى اذا عثر على خلل ولو تافه فى هيئة أحدهم أو بقعة فى ثوبه انهال عليه نهرا وتأنيبا ، وربما سأل كمالا بغلظة :

ــ غسلت يديك ؟

فاذا أجابه بالايجاب ، قال له آمرا :

ــ أرينهما .

فيبسط الغلام كفيه وهو يزدرد ريقه فرقا ، وبدلا من أن يشجعه على نظافته يقول له مهددا :

ــ اذا نسيت مرة أخــرى أن تغسلهما قبــل الأكل قطعتهما وارحتك منهما !

أو يسأل فهمى قائلا :

ــ أيذاكر ابن الكلب دروسه أم لا ؟

ويعرف فهمى بالبداهة من يعنى ، لأن « ابن الكلب » عند السيد كناية عن كمال ، فيجيب بأنه يحفظ دروسه جيدا ــ والحق أن شطارة الغلام التى استوجب عليها حنق أبيه لم تقعد به عن الجد والاجتهاد كما يدل عليهما نجاحه وتفوقه ، ولكن السيد كان يطالب أبناءه بالطاعة العمياء ، الأمر الذى لا يطيقه غلام اللعب أحب اليه من الطعام . ولهذا يعلق على اجابة فهمى قائلا بامتعاض :

ــ الأدب مفضل على العلم ...

ثم يلتفت الى كمال ويستطرد بحدة :
ـ سامع يا ابن الكلب ؟

* * *

هذا الأب شـــديد الاحساس بأنه رجل البيت . وهو يبدو دائما لزوجته فى مظهر الحامى لها . يتركها تدير مملكة البيت بسلطان كامل ، وتعنى بالأطفال ، حتى اذا عاد هو الى البيت سأل عما حدث أثناء غيبته . وتكون زوجته ماثلة فى انتظاره لخدمته بنفسها عند أوبته فى جوف الليل البهيم ، وفى رأسه تطن أغانى العوالم ونكات الخلان . فيجدها دائما هناك على رأس السلم وفى يدها المصباح ، ثم تعينه فى خلع معطفه وحذائه .

وكان قد تزوج بامرأة قبل أمينة ، ومنها أنجب ياسين . وفى ذات يوم طردها من البيت تأديبا لها ، وكان فى نيته أن يردها الى عصمته لو أنها أظهرت أقل بادرة للتوبة والندم والتذلل ، ولما لم تبد شيئا من هذا ، طلقها غير متردد .

وقد تكرر الموقف تقريبـــا مع أمينة حين أرسلها الى أمها بعد زيارتها لمسجد الحسين من غير اذنه ، مما اعتبره تمردا صريحا ..

وحين يزوج بنتيه لا يفكر الا فى نفسه ، وفيما يليق

بكرامته وسمعته ، ويقدم ذلك على التفكير فى هنائهما .

وحين حضرت سيدات لخطبة عائشة ، وقام برأسه أن الخاطب ربما شاهد وجه ابنته من النافذة فراقته ، وهو يريد أن يتقدم اليه الخاطب رغبـة فى مصـاهرته هو ، لا شغفا بجمال ابنته . فقال لزوجته عندما نفضت اليه ذلك الأمر ، قائلة أن الخاطب ضابط الحى وصديق فهمى :

« ـ انه ضابط الحى ، يسير فى شوارعنا صباح مساء فلا يبعد أن يقوم عنـد البعض ظن عن احتمال رؤيته لاحدى الفتاتين اذا علموا بزواجه منها ... لا أحب أن أعطى ابنتى لأحد ليثير الشبهات حول سمعتى ، بل لن تنتقل ابنتى الى بيت رجل الا اذا ثبت لدى أن دافعـه الأول الى الزواج منها هو رغبته الخالصة فى مصاهرتى أنا .. أنا .. أنا .. أتقولين لى « لم تقع عين رجـل على احدى بنتى ؟ » مبارك .. مبارك يا ست أمينة ..!

وأصغت الأم دون أن تنبس بكلمة فسـاد الصمت الحجرة ، ثم نهض الرجل ونزع ذراعيه من الجلباب ورفعه ليخلعه ، ولكنه توقف قبل أن تجاوز طاقة الجلباب ذقنه ، وقال والجلباب مكوم فوق منكبه كلبدة الأسد :

ـ ألم يقـدر فهمى خطورة الطلب الذى تقـدم به صديقه ؟ يحسدنى الناس على انجاب ثلاثة ذكور ، والحق

انى لم أنجب الا اناثا .. خمس اناث ! »

* * *

ورغم كل شىء ، كانت الحياة محتملة فى تلك الأسرة ، لأن الأب يقضى معظم الوقت فى الخارج ، فتدير أمينة البيت وتسوس كل شىء برقة وطيبة . ثم ان الاخوة والأخوات يسود جوهم التفاهم التام ، فيما عدا مناوشات طفيفة بين عائشة وخديجة ...

ثم هناك الرياء ، وهو حيلة الضعيف دائما فى مواجهة القوة الغاشمة القاهرة . فما حيلة امرأة مهددة بالطلاق فى أى لحظة ؟ وما حيلة أبناء وبنات أمام غضب أب عات لا يرحم ؟ ان استبداد هذا الأب جعل الكذب والرياء طبيعيين فى حياة هذه الأسرة . والرواية تذكر هذا بغير مواربة . فعندما قررت الأم زيارة الحسين خلسة ، اتفقت كلمة الأسرة كلها على كتمان ذلك عن الوالد . بيد أن أمينة كانت عاجزة عن الكذب ، اما لطيبتها البالغة أو لفزعها الشديد من زوجها ، فاعترفت له بكل شىء .

وبعد ذلك ، عندما رأت خديجة أن أختها الصغرى خطبت قبلها شعرت بعضاضة شديدة ، بيد أنها تظاهرت بالامتثال :

« على أنه لم يكن لها محيد عن كتمان عواطفها لأن

الكتمان فى هذه الأسرة ـ خاصة فيما يتعلق بالعواطف ـ عادة متأصلة وضرورة أخلاقية طبعت عليه فى ظل الارهاب الأبوى ، وبين الحنق والامتعاض من ناحية ، والكتمان والتظاهر بالرضى من ناحية أخرى لاقت من حياتها عذابا متصلا وجهدا مطردا » .

* * *

وواجهت المشكلة نفسها فهمى. أيطيع أباه الذى يحرم عليه الاشتراك فى المظاهرات ضد الانجليز سنة ١٩١٨ أم يعصاه ، لأن الوطنية كانت أقوى من كل احساس آخر فى نفس هذا الطالب الشاب .

وفى فصل من خير فصول الرواية نجد فهمى لا يعثر بحل لموقفه سوى الكذب على أبيه : (ص ٣٧٥)

« لم يكن الكذب فى هذا البيت بالرذيلة المخزية ، ولم يكن فى وسع أحد منهم أن يتمتع بالسلامة فى ظل الأب دون حمايته من الكذب ، وهم يجاهرون به فيما بينهم وبين أنفسهم ، بل ويتفقون عليه فى الموقف الحرج . وهل كان فى نية الأم حين تسللت فى غيبة السيد الى زيارة الحسين أن تعترف بفعلتها ؟ .. وهل كان فى وسع ياسين أن يسكر ، وهو أن يحب مريم ، وكمال أن يتعفرت بين خان جعفر والخرنفش بلا حماية من الكذب ؟ ! ... ليس الكذب مما

يتورع عنه أحد منهم ، ولو أنهم التزموا الصدق معأبيهم ما ذاقوا للحياة طعما ، لهذا كله قال بهدوء :

ـ أمرك مطاع يا بابا ... »

* * *

ولكن الرواية تذكر حالتين يكون كذب المسلم فيهما جريمة . فالخوض بالكذب فى عرض مسلمة حرام . ولذا عند ما قال كمال الصغير انه رأى مريم جارتهم تبتسم عودة لجندى انجليزى ، زجرته الأم على الفور زجرا شديدا قائلة بلهجة تنم عن الوعيد :

ـ كمال ! ... الكذب فى مثل هذا الأمر جريمة لايغفرها الله ... راجع نفسك يا بنى ... ألم تعد الحق فى شيء ...؟

وكذلك الصدق واجب حين يحلف أحدهم بالقرآن . ولذا نرى الأب يعمد الى هذا الملاذ الأخير فى حديثه مع ابنه فهمى كى يجبره على الطاعة والوفاء : (ص ٣٧٥)

« وأعقب قول فهمى لوالده ان أمره مطاع صمت تنفس فيه كلاهما شيئا من الراحة ، فظن فهمى أن استجوابه قد انتهى بسلام وظن السيد أحمد انه انتشل ابنه من الهاوية . وبينما كان فهمى ينتظر أن يؤذن له بالانصراف ، قام الأب فجأة واتجه الى صوان الملابس ففتحه ودس يده فيه والشاب يراقبه بعينين لا تدركان شيئا ثم عاد الى

مجلسه حاملا القرآن ، ونظر الى فهمى مليـا ثم مد يده بالكتاب اليه وهو يقول :

ـ اقسم لى على هذا الكتاب ...

وتراجع فهمى بحركة عكسية ندت عنه قبل أن يتدبر أمره ، كأنما يفر من لسان لهب امتد اليه فجأة ، وتسمر فى موقفه وهو يحملق فى وجه أبيه مرتبكا مذعورا يائسا ، فلبث السيد مادا يده بالكتاب وهو ينظر اليه فى غـرابة وانكار ، ثم احمر وجهـه كأنه يلتهب وانبعث من عينيه بريق مخيف ، وتساءل فى ذهول وكأنه لا يصدق عينيه :

ـ ألا تريد أن تقسم ؟ !

ولكن لسان فهمى انعقد ولم ينبس بكلمة ولم يبـد حراكا ، فتساءل الرجل بصوت هادىء تخللته رعشة متهدجة أنذرت بما يفور تحته من غضب مستعر كما ينـذر البرق بقعقعة الرعد :

ـ أكنت تكذب على ... ؟ »

ويبكى فهمى ، ويهرب من أمام أبيه . فلا يصر السيد على موقفه ...

وقصارى القول أن رقة الأم وحنانها ، وكثرة غيـاب الوالد عن البيت والتواطؤ بين الاخـوة والأخـوات ، والكذب عنـد اللزوم ، كلها تفسر الى حـد كبير ذلك الارتباط والتعلق الذى يحسه جميع الأبناء نحو بيتهم .

بيد أن الأب ليس هو الشخص المرهوب المخيف فحسب، بل هو كذلك الرجل القوى الذى لاغنى عن حمايته ، ولو لطرد الجن والقضاء على الخوف منهم . وأحمد عبدالجواد رجل شديد الاحساس بتماسك الأسرة ، فحين يكون هذا التماسك فى كفة الميزان ، يقدم على حمايته بكل وسيلة ، وحينما يكرب الأولاد شيء ، يخف الى معونتهم ، ثم بعد أن تنتهى الأزمة يوبخ الجانى منهم توبيخا شـديدا بين جدران حجرته الأبوية الأربعة .

واذا نظرنا الى الأسرة من الخارج رأيناها كتلة واحدة . وقد يعمد الأب الى الدبلوماتية كما حاول تهدئة ثائر والد زوجة ياسين . وكما توسط لابقاء أحد أبنائه فى القاهرة عند ما تعرض للنقل الى الصعيد ، وهو لا يبالى بالنفقات المالية فى سبيل أهل بيته . ولا نلمح ظلا للشح فى علاقاته بأبنائه . فهو عند ما يكتشف عشية زواج ياسين ان هذا الشاب كان ينفق مرتبه أولا بأول ولم يدخر منه شيئا ، تقدم على الفور وتكفل بجميع نفقات العرس . ومتى كبر الأولاد قل تدخله فى شئونهم . ومع هذا فحين يسمع أن ياسين باع دكانا ورثه عن أمه ، يصيح متعجبا مسـتنكرا (قصر الشوق ص ٢١٢) .

ـ كأنى غير موجـود فى هذه الدنيا ! حتى فى هـذا

لا يشاورني ! ضحكوا عليه بلا ريب ، وجدوا فى طريقهم لقية ، بغلا بلا سائس فى ثياب افندى !

* * *

وكان هذا الأب يعتقد اعتقادا جازما أنه قائم بجميع واجباته نحو ذويه . حتى أنه كلما تهددهم خطر ، التجأ الى شيخ يعرفه وطلب منه الأحجبة والتعاويذ لحمايتهم . وهو مقتنع باخلاص أنه يحب أولاده ، البنين منهم أكثر من البنات طبعا . وفى ذات يوم ندت منه صيحة فى وجه ياسين :

ــ ألا تحب ابنك ككل الآباء ؟

والحق أن أحمد عبد الجواد المستبد العاتى كان فى قرارة نفسه خاضعا لعدد معين من المبادىء والقواعد . وقد رأينا شدة احساسه بتماسك الأسرة . وهو الى هذا وطنى يتأثر ويهتز لجميع الأنباء السياسية . وحينما جمع الوفد اكتتابات لتمويل معركة سياسية بذل المال فى ذلك الاكتتاب بسخاء . ووقع عن طيب خاطر التوكيل للوفد فى مطالبة الانجليز بالاستقلال التام سنة ١٩١٨ ، ومع أنه لم يكن من ذلك الجيل الذى صارت الوطنية لديه بين سنة ١٩١٨ ، وسنة ١٩٢٧ دينا حقيقيا نبيه الزعيم سعد زغلول ، الا أنه كان بقلبه ووجدانه مع من يريدون تحرير البلاد .

ولذا كان اندفاع فهمى الى الاشتراك فى المظـاهرات سببا فى نشأة صراع فظيع فى دخيلة نفسه . فهو موزع بين وطنيته وبين اصراره على التحكم فى تصرفات ذويه . ثم جاء موت فهمى فكان أول ضربة قاسية لذلك الرجل الذى تعود حتى ذلك الوقت أن يرى كل شىء ينحنى أمامه .

وكان شديد الاحساس بالكرامة أيضا . تلك الكرامة التى يتكرر الكلام عنها فى الثلاثية . فالشعور بالكرامة عنصر رئيسى فى سيكولوجية جميع شخوص نجيب محفوظ. فالأب حريص على حفظ المظاهر لصون كرامته ولذا يخفى عن أهله سهراته وصبواته . ويتحاشى ما يجرح سمعته أو يفضحه . وهذا هو ما يفرق بينه وبين ابنه ياسين المتبذل .

* * *

وذات يوم جاءه الشيخ الذى يعتقد فى ولايتـه وهو الشيخ متولى عبد الصمد فألقى عليه درسا قاسيا ولامه أشد اللوم على حياته التى تجافى روح الاسلام وتعاليمه . فاحتج أحمد عبدالجواد قائلا (بين القصرين ص٣٨ فى ٣٩) :

ــ ماارتضت نفسى يوما أن تعتدى على عرض أو كرامة قط . والحمد لله على ذلك .

فضرب الشيخ ركبتيه بيديه وقال بغرابة واستنكار :

ــ عذر ضعيف لا ينتحله الا ضعيف . والفسق لعنـة

ولو يكن بفاجرة . كان أبوك رحمه الله مولعا بالنساء فتزوج عشرين مرة . فلماذا لاتنتهج سبيله وتتنكب طريق المعاصى ؟ !

فضحك السيد ضحكة عالية وقال :

ــ أأنت ولى من أولياء الله أم مأذون شرعى ؟ كان أبى شبه عقيم فأكثر من التزوج . وبالرغم من أنه لم ينجب سواى ، الا أن عقاره تبدد بينى وبين زوجات أربع مات عنهن ، الى ما ضاع على النفقات الشرعية فى حياته ، أما أنا فأب لثلاثة ذكور وأنثيين ، وما يجوز لى أن أنزلق الى الاكثار من الزوجات فأبدد ما يسر الله علينا من رزق ، ولا تنس يا شيخ متولى أن غوانى اليوم هن جوارى الأمس ، واللاتى أحلهن الله بالبيع والشراء ، والله من قبل ومن بعد غفور رحيم . .

* * *

وواضح أن احمد عبد الجواد يرفض الزواج بأكثر من واحدة حرصا على كرامته . وعندما نجده فى قصر الشوق مولعا بالعوادة زنوبة ، ونراها ترفض الاستسلام له ما لم يتزوجها ، تمنعه كرامته من الزواج بامرأة أقل منه منزلة ، وينشب صراع عنيف بين كبرياء الرجل المستبد وبين الشعور بالكرامة . ثم يكون هذا الصراع العنيف ثانى ضربة قاسية تنزل به بعد موت فهمى .

وأخيرا تأتى الشيخوخة ، ومنظر عائشة الحزينة على زوجها وولديها ، فيمحق ذلك كبرياء احمد عبد الجواد ، حتى أنه تمنى الموت العاجل ذات يوم أمام صاحبه محمد عفت ، فقال له صاحبه مازحا (السكرية ص ١٣٥) :

ـ اذا غلبتك الأفكار السوداء انقلبت امرأة . وحد الله يا أخى !

وذات يوم ، وقد اقتربت نهايته ، قالت له أمينة وهى تسقيه الدواء أن الشيخ فى المسجد كان يشرح للناس كيف يكفرون عن خطاياهم (السكرية ص ١٦٤) :

ـ سمعت فى المسجد درسا جميلا من الشيخ عبد الرحمن . تحدث يا سيدى عن الكفارة عن الذنب وكيف تمسح السيئات . كلام جميل جدا يا سيدى . ليتنى أستطيع أن أحفظ كأيام زمان ..

فهل كان كلامها هذا محض مصادفة أم كان تلميحا أشبه بالتصريح ؟

* * *

ويبقى سؤال أخير : ما هو الدور الذى يسنده الأستاذ نجيب محفوظ الى الدين فى حياة احمد عبد الجواد ؟ ماهى المكانة الحقيقية للاسلام فى حياة ذلك الرجل الذى لا يخلف وقتا واحدا من أوقات الصلوات الخمس اليومية ويصحب أولاده فى أبهة كاملة وسمت الى المسجد لصلاة الجمعة ،

ولا تكاد تكف شفتاه فى صحوه من ذكر الله ؟

ان احمد عبدالجواد كما رسمه المؤلف مؤمن بوحدانية الله ، وبأنه غفور رحيم . ولكن هذا الايمان بوحدانية الله الذى يحنقه على كمال لتشيعه لمذهب دارون ، لا يرعوى عن الاستبداد بسبب ذلك الايمان . ولا يرعوى عن مجونه وقصفه بسبب ذلك الايمان . بل هو يرى فى الاستبداد صفة ملازمة للرجولة . أما الشهوات الحسية فهى فى نظره أمور طبيعية كالرغبة فى الطعام والشراب .

وأحمد عبد الجواد يعلم فى قرارة نفسه أنه لا يسير بما يرضى الله . فعندما يسمع الخطيب فى المسجد يدعو الى التوبة والصلاح ، فانه على حد قول المؤلف فى (بين القصرين ص ٣٦٤)

« لم يكن السيد على شدة انصاته يكف عن الدعاء الباطنى وتوجه قلبه الى ياسين خاصة فدعا الله طويلا أن يصلح من شأنه ويقوم ما أعوج من أمره .. على أن الخطبة جبهته بمعاصيه ، أخلت ما بينه وبينها فطالعها وجها لوجه فى هالة مرعدة من صوت الواعظ الجهورى الرنان النافذ حتى خيل اليه أنه يعنيه بالذات ، وأنه يشد على أذنه صارخا فيها بأعلى صوته ، وانه لا يستبعد أن يخاطبه باسمه قائلا :

ـ يا أحمـد ازدجر .. تطهر من الفسق والخمر وتب الى الله ربك !

فألم به قلق وضيق كما ألما به يوم ناقشه الشيخ متولى عبد الصمد الحساب ، وهو ما يقع له كثيرا عند سماع الخطبة فيسترسل فى طلب الغفران والعفو والرحمـة ، ولكنه كابنه ياسين لم يكن يطلب التـوبة وان طلبها فبلسانه دون قلبه . يقول بلسانه اللهم التوبة على حين يقتصر قلبه على طلب الغفران والعفو والرحمة كأنهما آلتان موسـيقيتان تعزفان معـا فى اركسترا واحد ، فتصدر عنهما نغمتان مختلفتان . لأنه لم يتصور أن يرى الحيـاة بغير العين التى يراها بها ، ولا أن تبدو له بغير الوجه الذى تبدو به . »

* * *

بل ان كمال نفسه بعد أن فقد عقيدته الاسلامية ظل مأخوذا بهذا الازدواج فى سـلوك أبيه حتى قال ذات مساء لياسين ما يدل على استنكاره ، فأجابه ياسين (قصر الشوق ص ٣٤٨) :

ـ وهل أنا كافر ؟ وهل كان الخلفاء كفرة ؟ الله غفور رحيم !

أمينة ...

وأمينة الأم لا تتجزأ صورتها عن صـــورة زوجها.. فخلقهـــا الدمث وحنانهـــا وخوفها واستسلامها ، تكاد تنسينا جمـــالها الذى لا تتحدث عنه الرواية الا قليلا . فكل اهتمام القارىء يتركز على صفاتها الخلقية وتقواها الصادقة . فهى لا تفتأ تذكر أن والدها كان من أشياخ الأزهر حملة كتاب الله .

ونراها فى البيت كل صباح بعد خروج زوجها وأولادها قعيدة الدار رهينة ارادة زوجها الذى تدعوه سيدها ، فلا تعرف من القاهرة ومعالمها الا ما يتراءى لها من نوافذ بيتها ، فالقاهرة عندها ذلك الشارع الصاخب ومايجاورها من البيوت والمآذن والقباب الكثيرة فى ذلك الحى المزدحم بالمساجد التاريخية . أما ما وراء ذلك الأفق فعالم تجهله كل الجهل .

أين المدرســـة التى يذهب اليها الصغير كمال ؟ أين متجر زوجها ؟ انها تصعد فوق السطح وتتطلع بأنظارها الى ذلك العـــالم المحرم عليها ، ثم تفتح كفيها وتقول (بين القصرين ص ٣٣) :

ـ اللهم أسـألك الرعاية لسـيدى وأبنائى . وأمى وياسين . والناس جميعا مسلمين ونصارى ، حتى الانجليز يا ربى ، وأن تخـرجهم من ديارنا اكراما لفهمى الذى لا يحبهم !

* * *

وهى فى تقواها يقترن لديهـا الخوف من العفاريت والجن بالولاء لسـيدنا الحسين . وقد ترسـل خادمتها الوفية لتستشير عرافا عسى يخبرها بقرب زواج ابنتها خديجة . وهى تساعد ابنها الصـغير كمال فى استظهار صور القرآن وتستفيد من ذلك لتعميق معلوماتها الدينية . ويصورهما لنا المؤلف عاكفين ذات مساء على سـورة الجن (بين القصرين ص ٥٩) :

« ـ أيخاف أبى الله ؟ !

فتولتها الدهشة وقالت فى انكار :

ـ يا له من سؤال غريب !.. أبوك رجل مؤمن يا بنى والمؤمن يخاف ربه ..

فهز رأسه بحيرة وقال فى صوت خفيض :

ـ لا أتصور أن أبى يخاف شيئا ..

فهتفت المرأة فى عتاب :

ـ سامحك الله .. سامحك الله »

* * *

فوجود أمينة فى البيت هو عامل الهدوء والطمأنينة . والجميع حتى ياسين الذى ليس ابنها متعلقون بها . فهى تدرك أن زوجهـا قاس . وبعـد حادثة زيارتها لسيدنا الحسين أرسلها زوجها الى أمها وفرق بينها وبين أولادها فى قسوة . بيد أن هذه القسوة لم تحملها على التذمر . فهى تتعذب فى صمت . ونراها تدخل بيت أمها العجوز ولاتروى لها ما حدث بل تجاذبها الحديث ولكن فى فتور . ثم تلاحظ أمها أن ابنتها تبكى ، فتكتفى بأن تقول لها فى رفق وحنان :

ــ أتبكين ؟!.. يا لك من عبيطه !.. كأنك لا تطيقين أن تبيتى ليلتين فى حضن أمك !

* * *

والحق أن حيـاة أمينة اندمجت فى حيـاة زوجها تمام الاندماج وتلاشت ارادتها فى ارادته . فهى تجهل العالم الخارجى كله وتسـأل أولادها عن ذلك العـالم أسئلة ساذجة للغاية ، ولا تهتم بالسيـاسـة ، ولا تفكر الا فى ذويها . وعندما تظفر مصر بانتصار وطنى ترى فى ذلك يد الله ..

ــ سعد باشا رجل سعيد الحظ . الدنيا كلها تهتف باسمه . ولا افندينا فى زمانه . رجل مؤمن بلا ريب لأن الله لا ينصر الا المؤمنين . نصره على الانجليز الذين غلبوا

زبلن نفسه . أى فوز وراء هذا ؟ ! لقد ولد الرجل فى ليلة القدر .

* * *

والرواية تصـورها لنا دائما حانيـة منكرة لذاتها . وسلوك مريم جارتها يؤلمها جدا لأنها الفتـاة التى أراد ابنها المرحوم فهمى أن يتزوجها . وتمر بها السنوات حتى اذا لزم زوجها فراشه عاجزا عن الكلام والحراك يجود بأنفاســه ، كانت هى وحـدها التى لازمته لتقـرأ له الشهادتين .

وذات مساء يكتشف الصغير كمال وقد كبر أن أمه جاهلة غاية الجهل فيقول انها « الرقة الجاهلة » . والحق انها لا تحس بشىء من الأزمات النفسـية التى يعانيها أولادها وان كانت تشعر أن شيئا ما ليس على ما يرام .. فتسأل لهم ولكنها لا تملك لهم نفعا ولا عونا .

ياسين الابن الأكبر

يبلغ ياسين فى بداية بين القصرين سنة ١٩١٧ الحادية والعشرين من عمره . وقد أنجبه احمد عبد الجواد من زوجته الأولى التى طلقها . ولم يتجاوز تعليمه الشهادة الابتدائية ، ويعمل سكرتيرا لاحدى مدارس الحى .

وماذا كان هدف نجيب محفوظ من تحديد شخصية ياسين بحيث يبدو عاجزا عن مقاومة غرائزه ونوازعه الحيوانية ، ولا يعصمه من مزيد من الهبوط والاسفاف فى البهيمية الا سلطان العرف المباشر ؟ هل أراد أن يصور نمطا من الرجال نادرا ؟ أم أراد أن يبرز عن طريقه تماسك الأسرة التى كانت تنقذه من ورطاته ؟

ان الرواية تظهره لنا خفيف الظل عطوفا على اخوته وأخواته رغم أنانيته ، يسهم فى حياتهم المشتركة ويشيع فيها روح الفكاهة . وهو يقرأ بين الحين والحين الروايات أو أشعار الأقدمين ، حتى أنه هو الذى دفع بكمال فى تيار الأدب . ولايفوت المؤلف أن يصور لنا ذلك فى شىء من التهكم الخفيف بالنهج الذى ينتهجه أمثال ياسين فى القراءة المتعجلة السطحية للشعر العربى المنظوم بلغة

بينها وبين لغة الكلام اليومية بون شاسع (بين القصرين ص ٣٣٢) :

« كانت الروايات ـ بوليسية وغيرها ـ أشد استحواذا على قلبه من الشعر ، ولكنه أحب الشعر كذلك ، وعرفه من أيسر سبله ، يفهم ما يسهل فهمه ، ويقنع من الصعب بموسيقاه ، فندر أن يلجأ الى الهامش المشحون بالشروح ، وربما حفظ البيت وترنم به وهو لا يفقـه من معناه الا أقله ، أو يتصـور له معنى لا يمت الى حقيقته بسبب ، أو لا يدرك له معنى على الاطلاق ، ولكن رغم هذا كله رسب فى عقله من صوره وألفاظه ما يعد ثروة يتيه بها مثله حتى دأب على استغلالها لمناسبة ولغير مناسبة وهو الأكثر . فاذا عرض له يوما أن يكتب رسالة تهيأ لها تهيؤ الكتاب ، وأقحم عليها من الألفاظ الرنانة مايعلق بحافظته ، وضمنها ما فتح الله به عليه من مأثور الشعر ، حتى عرف بين مُعارفه بالبلاغة ، لا لأنه كان بليغـا حقا ، ولـكن لقصورهم عن مجاراته وارتياعهم حيال غريب محفوظاته . »

* * *

ونجح الأستاذ نجيب محفوظ فى تجليه ياسين لنا بالعين التى يراه بها اخوته وأخواته . أما اذا رأينـاه بعين غير تلك العين الراضية المغضية فلن نرى الا شخصا شهوانا

لا يرعوى عن شيء ، مسفا فى البهيمية الى حد يبعث على التقزز .

فهل ترى جنح المؤلف الى تصوير ذلك كله زلفى الى فئة من القراء تستطيب هذا اللون من الفعال أو الأوصاف ؟ أم ترى أراد أن يكمل صورة الأب ليرينا ما فى ذلك الرجل من شهوة كيف تبدو لنا حين تسفر عن وجهها الذى لا تقنعه سجية الاحساس بالكرامة ، تلك السجية التى تحلى بها الأب وتجرد منها ابنه ياسين ؟

والحقيقة أن ياسين ضحية وراثة زادت استفحالا باضطراب طفولته وافتقارها الى الحنان . فحنان زوجة أبيه أمينة جاء متأخرا . ثم ان ذلك الحنان لا يمكن أن يعوض وجود الأم الحقيقية ، تلك الأم التى تظهر فى الرواية فى موضعين أو ثلاثة . ونعلم أنها تزوجت بضع مرات بعد أن طلقها أحمد عبد الجواد حسبما شاء لها هواها . وكان آخر زواج لها من شاب يصغرها فى السن بكثير ، وفى المنزلة بكثير أيضا ، وكل أربه منها ماادخرته من مال . فثار ياسين وتألم بين الرجال وقد صارت سيرة أمه مضغة فى الأفواه ، وذهب ذات يوم ليناقشها الحساب العسير .

* * *

ومع أن ياسين أحد ضحايا الطلاق ومساوئه فقدتزوج

امرأتين على التعاقب كان يخونهما باصرار ، فانتهى الزواج فى الحالتين الى الفضيحة ثم الطلاق . وكان طلاقه من زوجته الثانية مريم على الخصوص وسط ضجة وهو فى حالة سكر شديد ، حتى أن الجيران تجمعوا فى بهمة الليل . وبعد طلاقها ظلت مريم تنحدر الى أن احترفت الدعارة .

بيد أن الزوجة الثالثة زنوبة العوادة التى كانت عشيقته من قبل هى التى استطاعت أن تروضه وتحتفظ به وترضخ لمساخره فى سبيل احتفاظها ببيت الزوجية الذى طال تشوقها اليه .

ونعلم كذلك أن ياسين كاد ينقل الى الصعيد عقابا له على بعض نزواته لولا أن والده تدخل مستعينا بأصدقائه فاكتفى بنقله الى وظيفة أخرى فى القاهرة . ونعلم كذلك أنه لا يفتأ بين الحين والحين ينساق الى تعقب بعض السيدات والفتيات فى الشوارع ، ولا سيما ذوات الأرداف التى تثير فى نفسه دائما الرغبات العارمة . وكان أيضا يتصل بالخادمات الراقيات اللواتى يعملن لدى الأوروبيين . ويظهر أنه كان لا بد له من زوجة من طراز زنوبة ذات الماضى الحافل كى تفهم سلوك رجل مثل ياسين الذى كانت تنعته بالثور الطليق السراح فى حظيرة من الأبقار .

وشيئا فشيئا ستصل زنوبة الى الحصول على اعتراف أسرة زوجها بها بعد تجاهل طويل . ومرة أخرى تكون الأحزان لموت أكبر أبنـائها من ياسين سـببا فى توثق الروابط فى تلك الأسرة فانعطفت عليها قلوبهم واستجابت هى لعطفهم .

* * *

وسنرى فى الرواية الثالثة أن ياسين يحب أولاده حبا ساذجا لا يخلو من غرارة ورعونة . فهو يوقظهم عنـد عودته فى الليل ليقضى معهم لحظات مرحة .

ويجتهد ابنه الأكبر رضوان الذى أنجبه من زوجته الأولى بنت السيد محمد عفت فى قضاء معظم الوقت فى بيت جده لأمه بعيدا عن بيت أبيه . ولكنه لا يرى أمه فى مرة الا وينغصه زوجها الجديد بالتعريض بسيرة أبيه ياسين وسلوكه .

ولما كان رضوان ضحية أخرى من ضحايا الطلاق ، سـنراه يعـاف الزواج وينصرف الى عقد الصـلات الشخصية مع رجال السياسـة والأحزاب ، يساعده فى ذلك اسم جده لأمه ومكانته حتى يصل الى مركز مرموق فى ذلك المحيط ويستخدم نفوذه لترقية أبيه بغير وجه حق . مما يبرز لنا مرة أخرى عنصر التماسك فى بناء تلك الأسرة البرجوازية الصـغيرة التى صورها لنا المؤلف القدير .

الفتاتان: خديجة وعائشة

تبـدو هاتان الفتـاتان فى انرواية الأولى شخصيتين تافهتين من حيث هما كبنات عصرهما قعيـدات الحريم اللواتى لا يعنيهن فى الحياة شىء فى فترة الشباب سوى الزواج .

وقد استطاع نجيب محفوظ أن يجعل من الشقيقتين نموذجين مختلفين للأنوثة ، فهما تتنازعان وتتخاصمان فى كثير من الأحيـان ، بيد أنهما على ارتباط وثيق داخل حدود الأسرة .

* * *

وخديجة كبرى الشقيقتين فى العشرين من عمرها سنة ١٩١٧ . ونراها شديدة الاقبال على العمل فى البيت بمهارة وحذق وعافية . بيد أنها نكبت بأنف طويل ولسان أطول . وكان ينغص عيشها أن ترى الخطاب يفضلون عليها أختها الصغرى عائشة ذات الستة عشر ربيعا ؛ فقد حباها الله طبعا وديعا وحسنا بديعا .

وعائشة مفترنة بجمالها ، تنشغل بالنظر الى المرآة عن مهنة البيت التى تتركها لخديجة . وكثيرا ما تشدو بصوتها

الرخيم . وعيبها الوحيــد فى نظر أهل زمانها نحافتهــا . فلجأت أمها الى الخادم العجوز كى تعد لها مستحضرات السمنة .

وخديجة أحرص الأختين على أركان العبادة من صوم وصلاة . ولكن نجيب محفوظ يقرن تلك التقوى بصفات خلقية كثيرة تنقضها . ولعل هذا من آثار النزعة اليسارية لدى المؤلف . فنرى خديجة الصـائمة المصلية تنفس على أختها الصغرى خطبتها قبلها وتتذمر لأن الله لم يجزها على تقواها . (بين القصرين ص ٢١٤)

« عجز جانبها الحامى الموروث عن أبيها ، كما عجــز جانبها المعقد المكتسب عن موقفها حيال بيئتها ، عن معالجة حظها العاثر ، فوجدت السلامة فى أن تلوذ بالجانب السلمى الموروث عن أمها فاستسلمت للمقادير ، كالقــائد الذى تعييه الحيل عن بلوغ الهدف فيختــار موقعا ذا حصانة طبيعية ليثبت فيه فلوله ، أو يدعو الى الصلح والسلام ، وراحت تشكو بثها فى الصلاة ومناجاة الرحمن ، والحق أنها كانت منذ صباها تجارى أمها فى تدينها ومحافظتها على الفرائض بمثابرة دلت على يقظة عاطفتها الدينية ، لا كعائشة التى تلم بالعبادة فى نوبات حماسية متبــاعدة ولا تطيق المداومة عليها ، وطالما تعجبت خديجــة ــ وهى بمعرض المقــارنة بين حظها وحظ أختها ــ من سوء الجزاء الذى

تثاب به على اخلاصها ، وحسن الجزاء الذى تثـاب به الأخرى على تهاونها :

ـ انى أحافظ على الصلاة أما هى فلم تطق المحافظة عليها يومين متتاليين ، وانى أصوم رمضان كله ، وأما هى فتصوم يوما أو يومين ثم تتظاهر بالصوم على حين تنسل خفية الى المخزن فتملأ بطنها بالنقل حتى اذا أطلق مدفع الافطار هرعت الى المائدة قبل الصائمين !

وحتى من ناحية الجمال فلم تسلم لعائشة بدون قيد ولا شرط . فكانت تطيل النظر الى وجهها فى المرآة وتناجى نفسها قائلة :

ـ عائشة جميلة بلا شك ولكنها نحيلة . السمانة نصف الجمال ، وأنا سمينة ، واكتناز وجهى يكاد يغطى على كبر أنفى . لم يبق الا أن يشد بختى حيله ! »

* * *

وفى كل صفحة نجد أثرا من لسان خديجة ، فهى مثلا تسلق أخاها ياسين الذى أنفق مرتبه أولا بأول فلم يجد شيئا لنفقات عرسه حتى اضطر الوالد الى النهوض بتلك النفقات (بين القصرين ص ٢٦٤) .

ـ اياك يا ياسين أن تستسلم غدا للحياء بين المدعوين والا عرفوا الحقيقة المرة وهى أن أباك الذى زوجك ونقد مهرك وجملة تكاليف ليلتك ، ولكن تحرك بلا توقف ،

وتنقل بين حجرات المدعوين . ضاحك هذا وكلم ذاك ، اطلع وانزل ، تفقد المطبخ ، اهتف وازعق ، لعلك توهم الناس بأنك حقا رجل الليلة وسيدها !

* * *

وأخيرا تتزوج الشقيقتان الواحدة منهما تلو الأخرى من رجلين شقيقين وتقطنان بيتا واحدا فى السكرية . وبالزواج تمايزت شخصيتا الشقيقتين ، ولا سيما لأن الزوجين من أهل الدعة والرخاوة والدماثة والفراغ ، يعيشان من دخلهما بغير عمل أو شغلة ، وبغير ثقافة أو تعليم . فما حاجة لذوى الأملاك العقارية الى تجشم عناء الدرس بعد المرحلة الابتدائية ؟

والرجلان الطيبان يتحملان بسعة صدر سلاطة لسان خديجة وطبعها المستبد . ويقضيان نهارهما فى البيت فى جلابيب طويلة من الحرير يدندنان على الآلات الموسيقية الشرقية .

ولم يمس التطور العصرى الشقيقتين فى شىء كثير فهما أسيرتا التقاليد القديمة مثل زوجيهما . وخديجة تمثل الجانب الاستبدادى فى أبيها من غير الجانب الشهوانى . وهى مثله متمسكة بالكرامة شديدة الحرص على أداء الصلاة ترغم زوجها على الصلاة والصوم فينقاد لها . وتحرم عليه الخمر فيصدع برأيها .

وصعد استبدادها الى السطح فشمل عش الدواجن التى تربيها حماتها وجارت على تلك الحظيرة شيئا فشيئا بدواجنها الخاصة حتى سلمت العجوز أمرها لله وتركت لها مملكة السطح !

وأصرت خديجة أن يكون لها مطبخ مستقل غير مبالية بما أحدثته من تصدع فى بناء تلك الأسرة ولم تتردد فى ايقاظ زوجها من نومه اذا رأت أن الوقت حان لتهوية المخدع ، فهى مشغوفة بالنظافة والتنظيف لا يثير صراخها شىء كأن ترى ابنيها أحمد وعبدالمنعم يعودان الى البيت بثياب قذرة من أثر اللعب فى الشارع .

ومع هذا فهى ذات قلب طيب بشهادة زوجها الذى ينقاد لها ولا تجد من يحنق عليها فى البيت الا حماتها التى اضطرت أن تشكو كنتها الى السيد أحمد عبد الجواد فحضر الى البيت ليعيد الأمور الى مجاريها ، فاضطرت أن ترضخ ، بيد أنها صبت حنقها على أمينة ، وقد صور المؤلف ذلك ببراعة فى قصر الشوق فى الفصل الحادى والعشرين .

« كان السيد أحمد عبدالجواد يجلس على كنبة فى صدر الحجرة القديمة على حين جلست الأم على مقعد قريب فى معطف كثيف لم تجد كثافته فى اخفاء ضآلة جسمها الذى احدودب أعلاه وقد نحل وجهها وعمقت تجاعيده وتكاثرت

وجف جلده فلم يبق شيء منه على ما كان عليه الا أسنانها الذهبية . وكانت المرأة تميل على مظلتها وتقول :

ـ قلت لنفسى اذا لم يحضر السيد أحمد كما وعدنى ، فلا هو ابنى ولا أنا أمه ...

فابتسم السيد قائلا :

ـ لا سمح الله . انى طوع أمرك . فأنا ابنك وخديجة ابنتك !

فمطت بوزها وقالت :

ـ كلكم أبنائى . أمينة هانم ابنتى الطيبة . انت سيد الناس . أما خديجة (ورنت اليه وعيناها تتشعان) فلم ترث سجية واحدة من سجايا والديها الطيبين .. (ثم وهى تهز رأسها) يا لطيف الطف !

ودخلت الجماعة ، ابراهيم فى المقدمة ، وتبعه خليل فعائشة ثم خديجة ، وصافحوا السيد واحدا فواحدا حتى جاء دور خديجة فانحنت فى أدب مثالى حتى لثمت يده ، فلم تتمالك العجوز من أن تقول فى عجب :

ـ زباه . ما هذه البولوتيكة . أأنت خديجة حقا ؟ لا تخدعنك الظواهر يا سيد أحمد ...

ولما قال لها ابنها ابراهيم برقة :

ـ وحدى الله ...

صاحت به :

ــ أنا موجدة أحسن منك يا بغل ! لو كنت رجلا حقا ما أحوجتنى الى استدعاء هذا الرجل الطيب . ما الذى جاء بك ، وكان يجب أن تكون غاطا فى نومك كالعادة ؟

وابتل صدر خديجة ارتياحا الى هذه البداية ، فتمنت لو تشتد حتى تغطى على قضيتها ، ولكن السـيد سألها بصوت مرتفع سد الطريق فى وجه المعركة المأمولة :

ــ ما هذا الذى سمعته عنك ياخديجة ؟ أحق أنك لست الابنة المؤدبة المطيعة لوالدتك ، أستغفـر الله بل لوالدتنا جميعا ؟

خاب أمل خديجة فغضت بصرها وتحركت شفتاها فى همس دون تبين وهى تهز رأسها نفيا ، ولكن الأم لوحت بيدها للجميع كى ينصتوا ثم أنشأت تتكلم فسردت تاريخ الخلاف ثم رفعت الى السيد أحمد عينين دامعتين من أثر سعال انتابها وهى تتكلم بصوت لم يخل من بح :

ــ أتستنكف أنت يا سيد أحمد أن تقول لى يا أمى ؟

ــ معاذ الله يا أمى .

ــ عوفيت يا سيد أحمد . لكن ابنتك تستنكف من هـذا ...

ــ صحيح هذا يا خديجة ؟ يجب أن تتكلمى ...

كانت خديجة كأنها فقدت القدرة على النطق . كانت من

الغيظ فى نهاية وكانت من الخوف فى نهاية والى هذا كله كانت يائسة من المناقشة .

ـ أريد أن أعرف الحقيقة ! أريد أن أعرف حقيقتك . ان التى تتحدث عنها والدتنا امرأة أخرى غير التى عهدتها فأيتكما تكون الصادقة ... »

وعلى هذا النسق البارع تجرى صفحات الفصل كله .

* * *

وفيمابعد يتمرد ولدا خديجة على سلطانها عندما يكبران وان بقيا مرتبطين بالأسرة ، فيصبح أحدهما شيوعيا ويصبح الآخر أخا مسلما . ونرى الشيوعى منهما يهاجم فكرة الملكية الخاصة عند ما سمع أمه تتحدث عن استعداد البوليس لطرد ساكن تأخر عن دفع الأجرة . وهذا منتهى التمرد فى بيت يعيش على ايراد الأملاك .

ولكننا على الجملة نجد خديجة سعيدة فى حياتها . وهى ان لم تفلت يوما بغير شكوى فما ذلك الا خوفا من الحسد (السكرية ص ٢١)

« وبدت خديجة فى شحمها ولحمها أضخم من ياسين نفسه ، ولم تنكر أنها سعيدة بذلك كما كانت سعيدة بعبد المنعم وأحمد وحياتها الزوجية الموفقة عامة ، بيد أنها لم تكف يوما عن التشكى اتقاء العين .

* * *

أما عائشه فهى كعهدها دائما جميله خليه البال ولكنها تألمت كثيرا عند وضع ابنتها الكبرى حتى خشى على حياتها وحياة الطفلة ، ثم استقرت الأمور وسعدت مع زوجها وولديها . واندمجت فى حياتها الجديدة اندماجا كاملا بغير عسر أو عناء . وما كان أشد غضب خديجة لآن شقة أختها لم تخل يوما من الويسكى والطباق والأغانى والطرب . حتى أنها شكت الأمر الى أمها (قصر الشوق ص ٢٣٣)

ـ اذا كان يعجبك أن تغنى ابنتك عند الجيران وترقص ابنتها ، فهل يعجبك أيضا أن تدخن كالرجال ؟ نعم ها أنت تدهشين ! أكرر على مسمعك أن عائشة تدخن ، وان التدخين صار لها كيفا لا تملك الامتناع عنه . وان زوجها يعطيها العلبة ويقول لها بكل بساطة « علبتك يا شوشو » ورأيتها بنفسى وهى تأخذ النفس وتخرجه من فيها وأنفها . أنفها أتسمعين ؟ لم تعد تخفى عنى ذلك كما كانت تفعل أول الأمر .

* * *

أما نعيمة الصغيرة فلها صوت جميل حقا وأمها تدربها على الغناء . ولكننا فى نهاية الرواية الثانية سنلفى عائشة وقد فجعت فى زوجها وولديها بوباء التيفود . حتى اذا انتهينا من الرواية الثالثة تمت النكبة بوفاة ابنتها الوحيدة، فلم يثمر فى تسليتها وازع الدين ولا حنان الأبوين والاخوة، وأخذت تذوى فى يأس لا عاصم منه ولا مجير .

فهمي : الابن الثانى

ان وفاة فهمى سنة ١٩١٩ شهيدا فى مظاهرة سياسية لم يدع لنا مجالا كبيرا لتبين شخصيته . ولكنه يبدو على الخصوص فتى مستقيما مهذبا استولت عليه السياسة الوطنية . وصارت جزءا لا يتجزأ من إيمانه الدينى . فمكافحة الانجليز لنيل الاستقلال هو الجهاد الذى أمر به القرآن (بين القصرين ص ٣٣٣) .

ـ ولكن الله يحث المؤمنين على الجهاد .

وكان فهمى يمنى النفس بانتصار الألمان كى يخلصوا مصر من الاحتلال الانجليزى . ولكن انتهاء الحرب فى نوفمبر سنة ١٩١٨ خيب أمله . وما ان تكون الوفد حتى انضوى تحت لوائه خلسة . ولما رآه أخوه الصغير كمال ذات يوم مشتركا فى مظاهرة أوصاه بالكتمان فكتم الصغير السر .

ويوم عودة سعد زغلول من منفاه فى مالطه تحدثت الأسرة كلها فى ذلك وتذكرت أمينة من سقطوا فى المظاهرات برصاص الانجليز ورثت لحال أمهاتهم فقال لها فهمى

بحماسته المندفعة القاسـية بعض الشيء (بين القصرين ص ٤٣٣) .

ــ الأم الوطنية حقا تزغرد لاستشهاد ولدها ! .

فوضعت أصبعيها فى أذنيها وهتفت :

ــ اللهم انى أشهدك على ما يقول سيدى الصغير ! أم تزغرد لاستشهاد ابنها ! أين ؟ ! على هذه الأرض ؟ ... ولا تحت الأرض فى عالم الشياطين ! .

قهقه فهمى عاليا ومضى يفكر مليا ثم قال وعيناه تلمعان باسمتين :

ــ نينه !... سأبوح لك بسر خطير آن له أن يذاع : لقد اشتركت فى المظاهرات وقابلت الموت وجها لوجه !

* * *

ولما خر فهمى قتيلا بعد ذلك بأيام وقد ظن الناس أن عهد اطلاق الرصاص قد انتهى ، أصمى الحزن قلب الأم والأب ، وان كانت الأسرة استشعرت فيما بعد الفخار كلما ألمت بأفرادها ذكرى الشهيد فهمى .

كمال: الابن الأصغر

ان شخصية كمال بلا ريب أهم شخصية وأبرزها فى ثلاثية نجيب محفوظ بعد شخصية الأب . وتعلم من ثنايا الرواية أنه ولد فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٠٧ . وليس فى طفولته شىء خارق للمعتاد . وظهور شخصيته فى الرواية منذ طفولته يتيح للمؤلف وجوها جديدة من التصوير يصعب عليه التعرض لها من غيره . فصغر سنه يسمح له بالتنقل بغير عائق داخل المقاصر والمخادع متنقلا بين الرجال والحريم فى بيئة كان الحريم فيها شديد الحجاب . ففى ليلة عرس ياسين مثلا نرى ياسين سنة ١٩١٨ ممنوعا من مشاهدة عروسه سافرة قبل الجلوة . ولذا فهو لا يعلم ان كانت جميلة أم لا . فيكلف ياسين أخاه الطفل كمال بالدخول الى الحجرة التى بها العروس كى يراها ثم يعود فيحدثه عن شكلها !

وفى يوم مظاهرات ثورة مصر نشاهد المظاهرة من داخل دكان حلوانى شعبى التجأ اليه الصغير كمال .

وهذا الصغير يتمتع بموهبة خصبة ومخيلة خلاقة تزين

له كثيرا من أفانين القصص ، ويعرف فيه ذووه ذلك الجانب فلا يأخذون كلامه كله مأخذ التسليم . وهكذا تنقضى الرواية الأولى وكمال على هامشها تقريبا ، حتى اذا كان الجزء الثانى من الرواية اذا بشخصيته تبرز وتتجسم . فقد استغل الأستاذ نجيب محفوظ فى الرواية الثانية شباب كمال ليصور ميدانا جديدا للصدام بين الغرب ومصر . فحتى سنة ١٩٢٤ لم تكن هذه الأسرة البرجوازية الصغرى تعرف من الغرب الا مظهره الخارجى . فلم يتغير شىء من أخلاق الأسرة التقليدية . ولم يطرأ على حياتها شىء من التقدم الا بما أدخل الى محيطها من مستحضرات عصرية قليلة العدد ، فى مقدمتها قراءة الصحف اليومية . وفيما عدا هذا الأثر القليل ظلت حياة تلك الأسرة أقرب الى حياة السلف الغابر منها الى حياة أهل العصر .

أما الاحتكاك الأكبر الأليم بين مصر والغرب فبدأ بالمظاهرات المناهضة للانجليز . ثم جلا لنا الأستاذ نجيب محفوظ عن طريق كمال اغراء الحياة الغربية وسحرها لدى أهل مصر الباقين على القديم ، وسحر الأفكار الفلسفية الجديدة التى استهوت هذا العضو الناشىء من أعضاء تلك الأسرة المحافظة . وهذا اللون من الاحتكاك ليس احتكاكا مظهريا ، وانما هو يتغلغل بنفوذه الى

ســويداء القلب واتجــاهات الذهن ، بكل ما فى ذلك التغلغل من خطورة شاملة .

والحق أن مشــكلة كمال هى المشــكلة التى تواجه الكثيرين من المصريين المثقفين الذين استقبلوا شبابهم حوالى سنة ١٩٢٥ . فهم حيارى أين يجدون المثل الأعلى الذى يخلف ما تهدم من مثل أسلافهم العليا .

وأول صدمة يتلقــاها كمال صدمة فى ميدان الحب . فقد انعقدت صلات الصداقة بينه وبين حسين شداد أحد رفاقه فى المدرســة الثانوية . وهو من أسرة ثرية تعيش على الأسلوب الأوروبى الذى لا يعرف الحريم . فيرى كمال فى أخت صــديقه وزميله عالما جديدا يختلف كل الاختلاف عن عالم أسرته . ويفتح قلبه على طراز جديد من العواطف والانفعالات تنقطع به الصلة بين كمال وبين عواطف لداته أبناء الحارة وأبناء الحى .

وكمال فى هذا الوقت شاب مسلم لم تفسد عقيدته الدينيةبعد يغنيه أن يظل طاهرا مخلصا لدينه، ولذا عافت نفسه تلك الصلات الدنيئة التى كانت تعقد خلسة مع فتيات متبذلات فى أقبية الحى وأزقتــه المظلمة . وكان لكمال ترب من أتراب الطفولة هو فؤاد الحمزاوى ابن وكيل متجر أبيه . وهذا الفؤاد تلميذ مجتهد طموح مثل بقيــة التلاميذ الذين تشغلهم رغباتهم ومصالحهم القــريبة عن

كل شيء . وهذا الفتى قد دخل مدرسة الحقوق طمعا فى وظيفة مرموقة يوم كانت الحقوق سلم المسند الوزارى . فى حين دخل كمال مدرسة المعلمين من فرط حبه للقراءة والفكر .

والتقى فؤاد الحمزاوى ذات يوم فى موكب مولد الحسين بفتاتين من صواحب عهد المراهقة الأول فتطوع وضرب لهما موعدا كى يلقاهما هو وصاحبه كمال . ثم ذهب يحمل اليه البشرى . وهنا ندع الأستاذ نجيب محفوظ يصور الموقف (قصر الشوق ص ٦٩ وما بعدها) :

ـ قابلت أناسا فسألونى عنك ...

ـ من ؟

فقال فؤاد ضاحكا :

ـ قمر ونرجس !

قمر ونرجس ابنتا ابوسريع صاحب المقلى . قبوقرمز . الأزقة المظلمة بعد الغروب . العبث المشوب بالسذاجة الدنسة أو الدنس الساذج . المراهقة المحمومة . ألا يذكر هذا كله ؟ ما لشفتيه تتقلصان تقززا ؟ ذلك تاريخ قديم نسبيا ، قبل حلول الروح المقدس ، لا يذكره الا ويثور قلبه سخطا وألما وخجلا كما ينبغى لقلب أترع بشراب الحب الطهور .

ـ كيف قابلتهما ؟

ـ فى زحمة مولد الحسين ، فسرت الى جانبهما دون تردد أو ارتباك كأننا أسرة واحدة جاءت لتطوف بالمولد !

ـ يا لك من جرىء !

ـ أحيانا . سلمت فسلمتا . وتحادثنا مليا . ثم سألتنى قمر عنك !

تورد وجهه قليلا وهو يسأل :

ـ ثم ؟

ـ اتفقنا مبدئيا على أن أخبرك ثم نتقابل جميعا !

هز كمال رأسه فى نفور ثم قال باقتضاب :

ـ كلا ..

فقال فؤاد فى دهش :

ـ كلا ؟ ظننتك ترحب بلقاء تحت القبو أو فى فناء البيت المهجور . فقد نضج جسماهما ، وعما قليل تصيران امرأتين بمعنى الكلمة . وعلى فكرة كانت قمر مرتدية الملاءة اللف ولكنها كانت سافرة . فقلت لها ضاحكا : لو لبست البرقع ما تجرأت على محادثتك !

فقال كمال باصرار :

ـ كلا ...

ـ لم ؟

ـ لم أعد أطيق القذارة !.

ثم بحدة نمت عن ألم دفين :

ـــ لا أستطيع أن ألقى الله فى صلاتى وثيابى الداخلية ملوثة !

فقال فؤاد بسذاجة :

ـــ تطهر واغتسل قبل الصلاة !

فقال كمال وهو يهز رأسه رثاء للاستعارة الضائعة :

ـــ ان الماء لا يطهر من الدنس ...

ذلك الصراع القديم ، كان يمضى الى لقاء قمر مضطربا بالشهوة والقلق ويعود بضمير معــذب وقلب باك ، ثم عقب الصلاة يستغفر استغفارا حارا طويلا . لكنه يمضى مرة أخرى مغلوبا على أمره ثم يعود بالعذاب ليستغفر من جديد ... يا لهــا من أيام نضحت بالشهوة والمرارة والعذاب ، ثم انبثق النور ، هنالك وسعه أن يحب وأن يصلى معا . كيف لا ؟ والحب من منبع الدين يقطر صافيا !

قال فؤاد فى شيء من الحسرة :

ـــ انقطعت علاقتى بنرجس منذ منعت من اللعب فى الحارة !

فسأله كمال باهتمام :

ـــ ألم تكن وأنت المؤمن تتعذب بتلك العلاقة ؟

فقال فؤاد وهو يغض البصر حياء :

ـــ هنالك أمور ما منها بد ...

ثم متسائلا وكأنه يدارى حياءه :

ــ أترفض حقا انتهاز هذه الفرصة ؟
ــ بكل تأكيد ! !
ــ لوجه الدين وحده ؟
ــ أليس هذا كافيا ؟
ابتسم فؤاد ابتسامة عريضة وقال :
ــ كم تحمل نفسك ما لا يحتمل ..!
فقال كمال باصرار :
ــ انى لكذلك وما ينبغى لى أن أكون غير ذلك ..
وتبادلا نظرة طويلة ، أفصحت فى عينى كمال عن الاصرار والتحدى ، فانعكست فى عينى فؤاد مهادنة وابتساما كأشعة الشمس الجهنمية التى تنعكس على سطح الماء لألاء ضاحكا ، ثم واصل كمال حديثه :
ــ انى أرى الشهوة غريزة حقيرة ، وأمقت فكرة الاستسلام لها ، لعلها لم تخلق فينا الا كى تلهمنا الشعور بالمقاومة والتسامى حتى نعلو عن جدارة الى مرتبة الانسانية الحقة . اما أن أكون انسانا واما أن أكون حيوانا .
فتريث فؤاد قليلا ثم قال بهدوء :
ــ أظن أنها ليست شرا خالصا فهى الدافع الى الزواج فالذرية ..!!
خفق قلب كمال خفقة عنيفة لم تجر لفؤاد فى خاطر :

أهذا هو الزواج فى النهاية ؟ ولكنه لم يكن يجهل هذه الحقيقة فى جملتها وان كان فى حيرة لا يدرى كيف يوفق الناس بين الحب والزواج . انها مشكلة لم يرتطم بها فى حبه . لأن الزواج بدا دائما ــ ولأكثر من سبب ــ فوق مرتقى أمانيــه . ولكن ذلك لم يمنع من قيــامها مشكلة تتطلب الحل . ما كان يتصور أن يكون اتصال سعيد بينه وبين معبودته الا عن طريق العطف الروحى من ناحيتها والتطلع الهيمان من ناحيته ، طريق بالعبادة أشبه ، بل هو العبادة نفسها ، فأى شأن للزواج فى هذا ؟

ــ الذين يحبون حقا لا يتزوجون .

تساءل فؤاد بدهش :

ــ ماذا قلت ؟

فطن حتى قبل تساؤل فؤاد الى أن لسانه خان ارادته ، فبدا عليه الارتبــاك لحظات حرجة ، وراح يتذكر آخر أقوال فؤاد قبل ندود هذه الجملة الغريبة عنه حتى اهتدى بشىء من الجهد ــ على حداثة العهــد بسماعها ــ الى كلماته عن الزواج والذرية ، فصمم على مداراة هفوته وعلى تصحيح معناها ما أمكن ، فقال :

ــ الذين يحبون ما فوق الحياة لا يتزوجون . هذا ما عنيت ...

ابتسم فؤاد ابتسامة خفيفة أولعله كان يقاوم ضحكة ،

غير أن عينيه العميقتين لم تنما عما وراهما واكتفى بأن قال :

ـ هذه أمور خطيرة ، والحديث عنها الآن سابق لأوانه ، فلندعها مرهونة بأوقاتها ...

فرفع كمال منكبيه باستهانة وثقل وقال :

ـ فلندعها ولننتظر ...

* * *

وشيئا فشيئا يدرك قارىء الرواية الثانية مدى أهمية آل شداد فى حياة كمال . وآل شداد يمثلون فى هذه الرواية الأرستقراطية المصرية أو الطبقة الراقية . فوالد حسين شداد كان من حاشية الخديو السابق عباس حلمى وظل على ولائه له ، له قصر فى العباسية تحيط به حديقة كبيرة على مشارف الصحراء . وهناك كان يلتقى كمال بأصدقائه الجدد ، حيث يجد بيئة تختلف تمام الاختلاف عن بيئة سكان بين القصرين . وبهره أسلوب معيشة آل شداد ، وذهابهم الى المصيف فى الاسكندرية أو رأس البر أو أوروبا حيث يبقى هو مصطليا نار القاهرة المحرقة . وكان يعجبه على الخصوص خروج الأبوين معا الى المنازه والزيارات على غير ما ألفه فى بيته .

ثم هناك عايدة شقيقة حسين شداد التى تمر بالمجموعة أحيانا فتهدى السلام فى رقة وبساطة وتحفظ ولكن فى

براءة من تلك الحوائل التقليدية التى تفصل فصلا حاسما بين الشبان والشابات . وقد سلبت عايدة لب كمال من اللحظة الأولى .

وفى ذات يوم صحب حسين شداد أخته عايدة وأخته الطفلة بدور وكمال فى سيارته الى الهرم للنزهة ، حيث لحقت بقيـــة المجموعة بهم هناك فقضوا يوما حافلا على غرار لم يعهده كمال فى البيئة المصرية التى نشـــأ فيها . وندع الأســـتاذ نجيب محفوظ يقدم لنـــا تلك الصورة الرائعة من قصر الشوق (ص ١٦٦ وما بعدها) :

« أقبلت عايدة تخطر بقوامها البديع فىفستان سنجابى قصير على أحدث موضة ، توارى أعلاه تحت دراعة من الحـــرير كحلية اللون كشفت عن ســـاعديها الخمريتين الصافيتين ، وكانت هالة شعرها الاسود تحدق بقذالها وعارضيها وتنوس بحركة مشيتها نوسانا تموجيا ، أما أسلاك قصتها الحريرية فاستكنت على الجبين كاســـنان المشط ، وفى وســـط هذه الهالة بدا الوجه البدرى فى طابع من الحسن أنيق ملاكى كأنه ســـفير ســـام لدولة الأحلام السعيدة .

« تسمر كمال فى موضعه تحت تأثير التيار المغناطيسى على حال بين اليقظة والنوم ، ولم يبق من الدنيا فى وعيه الا عاطفة امتنان وجيشة وجدان ، وجعلت هى تقترب

فى خفة وتبختر كأنها نغمة حلوة مجسمة ، حتى سطعه من أعطافها عبير باريس . ولما التقت الأعين لاحت فى ناظريها وشفتيها المضمومتين ابتسامة موسومة بالبشاشة والهدوء والارستقراطية معا ، فرد عليها كمال بابتســامة حائرة وسجدة من رأسه »

***

وعند ما يصف الأستاذ نجيب محفوظ آل شداد نجد أنفسنا ازاء أســتاذ راسخ القدم بارع القلم لا يتكلف شيئا ، يستأنى فى تصويره للأحداث الصغيرة والتفاصيل المعبرة التى تضفى على اللوحة معناها الكامل .

ويكتشف كمال شــيئا فشيئا أن حجــابا أغلظ من حجاب الحريم يحول بينه وبين شقيقة صاحبه التى سلبت فؤاده . وهذا الحجاب هو اختلاف الطبقة الاجتماعية . فكانت تلك أول خيبة أمل يمنى بها .

ان اختلاف الطبقتين واضح جــدا فى الرواية لا من حيث المستوى المادى فقط ، بل وأيضا من حيث أسلوب التفكير . فحسين شداد (قصر الشوق ص ١٨٢) يقول :

ــ انى أكره التودد الى الكبراء . ولكن لا يعنى هذا أن احترم العامة ! انى أحب الجمال وأزدرى القبح ، ومن المؤسف أن الجمال قل أن يوجد فى العامة .

وحسين هذا لا يفكر فى معاشه وتدبير مستقبله . لا يفكر الا فى السياحة بين أقطار أوروبا . وهو فى السياسة على مذهب الأحرار الدستوريين كجميع أبناء البيوتات الذين يعيبون على سعد زغلول صلابته ويتهمونه بتضييع السودان والدستور بسبب تلك الصلابة .

وأما عايدة فهى فى نظر كمال باريسية . فقد ربيت بالقسم الداخلى فى مدرسة الراهبات المسماة مدرسة أم الاله بالقاهرة (المير دى ديبه) . وهى غير غافلة عن تدله كمال فى حبها بيد أنها تتجاهل ذلك . ونرى كمال يصب على الطفلة بدور جميع العواطف التى يود لو غمر بها شقيقتها الكبرى .

ولا يفوت نجيب محفوظ أن يغمز تلك الطبقة الغنية . فآل شداد بخلاء ينفقون على المظاهر عن سعة ويقترون على الخدم ولا يقدمون لضيوف حسين من أصحابه الا الماء البارد . ويأكلون شطائر من لحم الخنزير فى رحلة الهرم ، مع أنهم يحتفلون بشهر رمضان احتفالا باهرا .

وأخيرا يكتشف كمال أن عايدة تستخدمه لاثارة غيرة أحد رفاقه وهو ابن مستشار ملكى واسع الثراء كى يتقدم لخطبتها . ولولا تلك الاثارة ما كانت لتطمع فى

الزواج منه . وتقع هذه الصدمة على كمال وقوعا حاطما بيد أنه يزدرد مرارته ولا ينبس بكلمة .

وفى يوم القران يذهب كمال فيجد نفسه منزويا مهملا لا يقدمه أحد الى نجوم السياسة الذين كان يتوق الى التعرف بهم منذ زمن طويل. وندع الأستاذ نجيب محفوظ يعلق على ذلك الموقف بكلماته (بين القصرين ص ٢٩٩) :

« بدأت الحفلة بتلاوة سورة على سبيل البركة . ما ألطف هذا ! الباريسية الحسناء نفسها لاتستطيع أن تعقد قرانها الا بمأذون وقرآن ! وهكذا سيقترن زواجها فى ذهنك بالقرآن والشمبانيا. وستضيع منك مناظر ماأخلقها بالتسجيل لتكون زادا لألمك النشره كرؤية اسمها الجميل وهو يكتب فى الوثيقة الشرعية ، ومنظر وجهها المتطلع الى اعلان النبأ السعيد ، ولون الابتسامة التى يفتر عنها ثغرها عند زف البشرى ، ثم منظر العروسين وهما يتلاقيان . حتى ألمك يعوزه الزاد ... أليس من المحزن أن يسد مجرى حياتك رجل لا شأن له كهذا المأذون ؟ ولكن دودة حقيرة هى التى تأكل جدث أكبر الكبراء » .

* * *

وتسافر عايدة وزوجها الى أوروبا ويقتفى شقيقها أثرهما . فقد عين زوج عايدة فى السلك السياسى . وتعلل أخوها بالرغبة فى الدراسة بباريس . ويجر الزمن ذيوله

على تلك الصدمة المروعة فى الظاهر . ولكن كمال يعزف عن الزواج نهائيـا ولن يرى عايدة بعد ذلك وان كان يسمع طرفا من أخبارها بين الحين والحين .

وفى نحو سنة ١٩٤٢ وقد أصبح كمال مدرسة للغة الانجليزية فى مدرسـة ابتدائية ، يمشى فى جنـازة حرم المفتش العـام للغة الانجليزية مجـاملة لرئيسه الأكبر ، ولا يعلم الا بعد سنة من ذلك التاريخ أن التى شـيع جنازتها كانت عايدة وقد تزوجت ذلك المفتش بعد طلاقها من زوجها الأول .

* * *

وهذا الاحتكاك الأول لكمال بأسلوب الحياة الغربى قد أورثه عذابا شديدا فعرف مدى الفروق والحواجز المادية والمالية بين الطبقات . ولئن لم يضمن قلبه حقدا فقد انطوى على سخط ومرارة .

أما الاحتكاك الثانى لكمال بالغرب ففى المجال الفكرى . ودراساته الخاصة ستفتح عينيه على عالم جديد تماما . فيصبح من أتبـاع دين العلم العصرى ، ويتنكب ذلك الدين التقليدى الذى علمته اياه أمه .

وفى رواية قصر الشوق يستغرق حب كمال بعـايدة ما بين سنة ١٩٢٤ ، سنة ١٩٢٦ وقد دخل مدرسة المعلمين.

وصار بعيدا بأفكاره عن أمه. ويلح الأستاذ نجيب محفوظ فى ابراز رغبة كمال فى المجد الأدبى . ولكن الصراع ينشب فى نفسه بين جذور معتقداته القديمة وبين ثمار الفلسفة العلمية الحديثة . وهى أزمة شبيهة بما انتاب شباب أوروبا منذ خمسين عاما عند بزوغ فجر العصر العلمى الحديث فراحوا يلتمسون تأويلات لنصوص التوراة تتفق مع النظريات التجريبية .

وفى دوامة هذه الأزمة عاش كمال وبدأ يكتب فى نظرية التطور التى وصلت الى مصر قبيل ذلك العهد ، وندع الأستاذ نجيب محفوظ يحدثنا فى قصر الشوق (ص ٣١٨ وما بعدها) :

« قبل الخروج الى صلاة الجمعة بساعة دعا أحمد عبد الجواد كمال الى حجرته . لم يكن يدعو أحدا من أهل بيته الى مقابلته الا لأمر هام . والحق أنه كان مبلبل الفكر، متحفزا لاستجواب ابنه عما يشغله . وكان بعض أصحابه قد وجهوا نظره مساء الى مقال ظهر فى البلاغ الأسبوعى بقلم الأديب الناشىء « كمال أحمد عبد الجواد » ، ومع أن أحدا منهم لم يقرأ من المقال الا العنوان وهو « أصل الانسان » والامضاء وهو الأديب الناشىء « كمال أحمد عبد الجواد » فانهم اتخذوا منه مادة للتعليق والتهنئة وممازحة السيد ، حتى فكر الرجل جادا فى أن يكلف

الشيخ متولى عبد الصمد بعمل حجاب للشاب . قال له محمد عفت « سجل اسم ابنك مع أسماء كبار الكتاب فى مجلة واحدة ، طب نفسا وادع الله أن يكتب له مستقبلا باهرا كما كتب لهم » ، وقال له على عبد الرحيم « سمعت من شخص محترم ان المرحوم المنفلوطى ابتاع عزبة بقلمه فأبشر خيرا » ، وحدثه آخرون عن القلم وكيف شـق السبيل لكثيرين الى حظـوة الحكام والزعماء ، ضاربين الأمثال بشوقى وحافظ والمنفلوطى ، وعنـد ما جاء دور ابراهيم الفار داعبه قائلا « سبحان الذى يخلق من ظهر الجاهل عالما » ، أما السـيد فقد ألقى نظرة على العنوان ونظرة على « الأديب الناشىء » ، ثم وضع المجلة فوق جبته التى كان قد نزعها بسبب حرارة يونيه وحميا الويسكى مؤجلا قراءتها حتى ينفرد بنفسه فى البيت أو فى الدكان. ثم واصل سهرته بصدر منشرح وضمير تياه فخور ، بل جعل يراجع نفسه لأول مرة فى سـخطه المكظوم على ايثـار الشـاب لمدرسة المعلمين قائلا ان « الولد » فيما يبدو سيكون « شيئا » رغم اختياره غير الموفق ، وبنى أحلاما على ماقيل عن « القلم » وحظوة الكبراء وعزبة المنفلوطى ، أجل ، من يدرى ؟ ، لعله لا يكون معلما فحسب ولكن يشق السبيل حقا الى حياة لم تخطر له على بال . وعند ضحى اليوم ، وبعد فراغه من الصلاة والافطار ، تربع على

الكنبة وفتح المجلة باهتمام وراح يقرأ بصوت مرتفع ليمتلىء بمعانيها . لكن ماذا وجد فيها ؟ . انه يقرأ المقالات السياسية فيفهمها دون عناء ، أما هذه المقالة فانها دارت برأسه وأفزعت قلبه . وأعاد تلاوتها بعناية فطالع كلاما عن عالم يدعى « دارون » ومجهوده فى جزر نائية ، ومقارنات ثقيلة بين شتى الحيوانات حتى وقف مبهوتا عند تقرير غريب يزعم أن الانسان سلالة حيوانية ! ، بل انه متطور عن نوع من القردة ! . وكرر تلاوة الفقرات الخطيرة منزعجا ، ثم لبث ذاهلا أمام هذه الحقيقة الأسيفة وهى أن ابنا من صلبه يقرر ــ دون اعتراض أو مناقشة ــ أن الانسان سلالة حيوانية ! . انزعج الرجل انزعاجا شديدا وتساءل فى حيرة : هل حقا يعلمون الأولاد هذه المعلومات الخطيرة فى مدارس الحكومة ، ثم أرسل فى طلب كمال .

وجاء كمال وهو أبعد مايكون عما يعتلج فى رأس أبيه . وأشار السيد اليه بالجلوس ، فجلس على طرف الكنبة متجها نحو أبيه بأدب ، وعند ذاك لمح أمه جالسة أمام الصوان مشغولة بترتيب الثياب وخيطها ، أما الرجل فقد رمى بالبلاغ الأسبوعى الى الفراغ الذى يفصل بينهما على الكنبة وقال بهدوء مصطنع :

ــ لك مقال فى هذه المجلة ، أليس كذلك ؟

خطف غلاف المجلة عينى كمال فرنا اليه بعين ذاهلة

دلت على أنه لم يكن يتوقع هذه المفاجأة قط ... من أين لأبيه هذا الاطلاع المستجد على المجلات الأدبية ؟ ! .

رفع عينيه عن المجلة ، ثم قال بلهجة لم يمكنها من الافصاح عن اضطرابه :

ــ بلى ، خطر لى أن أكتب موضوعا تثبيتا لمعلوماتى وتشجيعا لنفسى على مواصلة الدرس ...

قال السيد أحمد بهدوئه المصطنع :

ــ لا عيب فى ذلك ، الكتابة فى الصحف كانت ولم تزل الوسيلة الى الجاه والحظوة عند الكبراء ، ولكن المهم الموضوع الذى يكتب فيه الكاتب ، ماذا أردت بهذه المقالة ؟ ، اقرأها واشرحها لى ، فقد غمض على مرماك ...

يا للتعاسة ! ، ليس هذا المقال للجهر ، وخاصة على مسمع من أبيه !

ــ انه مقال طويل يا بابا ، ألم تقرأه حضرتك ؟ ، انى أشرح فيه نظرية علمية ...

حدقه الرجل بنظرة براقة متحفزة . أهذا ما يدعونه بالعلم الآن ؟ . ألا لعنة الله على العلم والعلماء ...

ــ ماذا تقول هذه النظرية ؟ ، لقد لفتت نظرى عبارات غريبة تقول : ان الانسان سلالة حيوانية ، أو شيئا من هذا القبيل ، أحق هذا ؟

بالأمس ناضل نفسه وعقيدته وربه نضالا عنيفا أعيا

روحه وجسده ، واليوم عليه أن يناضل أباه ، غير أنه كان فى الجولة الأولى معذبا محموما ... أما فى هذه الجولة فهو خائف مرتعب ، ان الله قد يؤجل عقابه ، أما أبوه فشيمته التعجيل بالعقاب ...

ـ هذا ما تقرره هذه النظرية !

علا صوت السيد وهو يتساءل فى انزعاج :

ـ وآدم أبو البشر الذى خلقه الله من طين ونفخ فيه من روحه ، ماذا تقول عنه هذه النظرية العلمية ؟ !

طالما طرح هذا السؤال على نفسه ، لم يكن دون أبيه انزعاجا ، ولم يغمض له جفن ليلتها حتى الصباح ، وتقلب فى الفراش متسائلا عن آدم والخالق والقرآن ، وقال لنفسه مرة وعشرا : القرآن اما أن يكون حقا كله أو لا يكون قرآنا . انك تحمل على لأنك لم تدر بعذابى ، لو لم أكن قد اعتدت العذاب وألفته لأدركنى الموت تلك الليلة . قال بصوت خافت :

ـ دارون صاحب هذه النظرية لم يتكلم عن «سيدنا» آدم ...

هتف الرجل غاضبا :

ـ لقد كفر دارون ووقع فى حبائل الشيطان ، اذا كان أصل الانسان قردا أو أى حيوان آخر . فلم يكن آدم أبا للبشر ... هذا هو الكفر بعينه ، هذا هو الاجتراء الوقح

على مقام الله وجلاله ! ! انى أعرف أقباطا ويهودا فى الصاغة وكلهم يؤمنون بآدم ، كل الأديان تؤمن بآدم فمن أى ملة دارون هذا ؟!، انه كافر وكلامه كفر ونقل كلامه استهتار. خبرنى أهو من أساتذتك بالمدرسة ؟

ما أدعى هـذا الى الضـحك لو كان فى القلب فراغ للضحك ، لكنه قلب أفعمته الآلام ، ألم الحب الخائب وألم الشك وألم العقيدة المحتضرة ، ان الموقف الرهيب بين الدين والعلم أحرقك ، ولكن كيف يسع عاقل أن يتنكر للعلم ؟ . قال بصوت متواضع :

ــ دارون عالم انجليزى مات منذ زمن بعيد ...

وهنا ند عن الأم صوت يقول بتهدج :

ــ لعنة الله على الانجليز أجمعين ...

فالتفتـا نحوها التفاتة قصيرة ، فوجـداها قد تركت الثياب والابرة وتابعت الحديث ، ولكن سرعان ما انصرفا عنها وعاد الأب يقول :

ــ خبرنى ، هل تدرسون هذه النظرية فى المدرسة ؟

التقف حبل النجاة الذى تدلى اليه فجأة ، فقال لائذا بالكذب :

ــ نعم ....

ــ أمر غريب ! ، وهل تدرس هذه النظرية فيمـا بعد لتلاميذك ؟ !

ــ كلا ، سأكون مدرس آداب لا علاقة لها بالنظريات العلمية ...

ضرب السيد كفا بكف . ود فى تلك اللحظة لو كان له على العلم بعض ماله على الأسرة من سلطان . وهتف محنقا :

ــ اذن لماذا يدرسونها لكم ؟ ! ، هل الغاية ادخال الكفر فى قلوبكم ؟

فقال كمال بلهجة المحتج :

ــ معاذ الله أن يؤثر فى عقيدتنا مؤثر ...

فتفحصه بارتياب وهو يقول :

ــ ولكنك نشرت الكفر بمقالك !

فقال بارتباك :

ــ أستغفر الله ، انى أشرح النظرية ليلم بها القارىء لا ليؤمن بها ، هيهات أن يؤثر فى قلب المؤمن رأى كافر ...

ــ ألم تجد موضوعا غير هذه النظرية المجرمة لتكتب فيــه ؟ ...

لماذا كتب مقالته ؟ . لقد تردد طويلا قبل أن يرسلها الى المجلة ، ولكنه كان كأنما يود أن ينعى الى الناس عقيدته . لقد ثبتت عقيــدته طوال العامين الماضيين أمام عواصف الشك التى أرسلها المعرى والخيام ، حتى هوت عليهــا قبضة العلم الحديدية فكانت القاضية . على أننى لست كافرا ، لا زلت أومن بالله ، أما الدين ... ؟ ، أين الدين ؟ ،

ذهب ! ، كما ذهبت رأس الحسين ، وكما ذهبت عايدة ، وكما ذهبت ثقتى بنفسى !. قال بصوت حزين :

ــ لعلى أخطــأت ، عذرى أننى كنت أدرس هــذه النظرية ...

ــ ليس هذا بعذر ، وعليك أن تصلح خطأك ...

يا له من رجل طيب . انه يطمع فى أن يحمله على مهاجمة العلم فى سبيل الدفاع عن أسطورة . حقا لقد تعذب كثيرا ولكنه لن يقبل أن يفتح قلبه من جديد للأساطير والخرافات التى طهره منها . كفى عذابا وخداعا ، لن تعبث بى الأوهام بعد اليوم ، النور النور ، أبونا آدم ! ، لا أب لى ، ليكن أبى قردا ان شاءت الحقيقة ، انه خير من آدميين لا عداد لهم ، لو كنت من سلالة نبى حقا ما سخرت منى سخريتها القاتلة ...

ــ وكيف أصلح الخطأ ؟

فقال السيد ببساطة وحدة معا :

ــ عندك حقيقة لا شك فيها ، وهى أن الله خلق آدم من تراب ، وان آدم هو أبو البشر ، هذا مذكور فى القرآن ، فما عليك الا أن تبين أوجه الخطأ وهو عليك هين ، والا فما فائدة ثقافتك ؟

وهنا جاء صوت الأم قائلا :

ــ ما أيسر أن تبين خطأ من يعارض قول الرحمن ، قل

لهذا الانجليزى الكافر : ان الله يقول فى كتابه العزيز : ان آدم هو أبو البشر ، كان جدك من حملة كتاب الله فعليك أن تنهج سبيله ، لقد سرنى أنك تبغى أن تكون مثـله من العلماء ...

لاح الضيق فى وجه السيد . فانتهرها قائلا :

ــ ماذا تفهمين أنت من كتاب الله أو من العلم ؟ ، دعينا من جده وانتبهى الى ما بين يديك ...

فقالت فى حياء :

ــ أريد يا سيدى أن يكون كجده من العلماء الذين يضيئون الدنيا بنور الله ...

فصاح الرجل ساخطا :

ــ ها هو قد بدأ ينشر الظلام ...

فقالت المرأة فى اشفاق :

ــ معاذ الله يا سيدى ، لعلك لم تفهمه ...

حدجها السيد بنظرة قاسية . لقد خفف من شدته فى معاملتهم فماذا كانت النتيجة ؟. ها هو كمال يقول ان أصل الانسان قرد ، وها هى أمه تناقشه وتقول له لم تفهم !.

صاح بها :

ــ دعينى أتكلم ، لاتقاطعينى، لاتتدخلى فيما لاتفهمين، انتبهى الى عملك ، الله يقطعك ..

ثم ملتفتا الى كمال بوجه متجهم :

ــ خبرنى ، هل أنت فاعل ما قلت لك ؟

عليك رقيب فى البيت لم يتل الأحرار بمثله فى الدول، لكنك كما تخافه تحبه ، فلن يطاوعك قلبك على الاساءة اليه . تجرع الألم فقد اخترت حياة النضال .

ــ كيف يمكن أن أرد على هذه النظرية ؟، لو انحصرت مناقشتى فى الاستشهاد بالقرآن لما جاءت بجديد ؛ فالكل يعلم بما عندى ويؤمن به ، أما مناقشتها علميا فشأن المختصين من العلماء ...

ــ ولماذا تكتب فيما لا شأن لك به ؟

اعتراض وجيه فى ذاته ، غير أنه من المؤسف أنه لا يجد الشجاعة للاعتراف لأبيه بأنه آمن بالنظرية بصفتها حقيقة علمية ، وأنها بهذه الصفة يمكن الاعتماد عليها فى انشاء فلسفة عامة للوجود خارج نطاق العلم . أما السيد فقد ظن صمته اقرارا بالخطأ فتضاعف أسفه وحنقه . ان الضلال فى هذا الميدان شديد الخطورة سيىء العاقبة ، وهو ميدان لا سلطان له عليه ، وربما وجد فيه نفسه مكتوف اليدين أمام الشاب الضال كما وجد نفسه من قبل أمام ياسين بعد انفلاته من وصايته ، فهل يجرى عليه ماجرى على الآباء الآخرين فى هذه الأيام الغريبة ؟!. ان أنباء كالأساطير تترامى اليه عن شباب «اليوم» ؛ منهم تلاميذ قد اعتادوا التدخين ، وآخرون يعبثون بكرامات المدرسين ، وغير

هؤلاء وأولئك قد تمردوا على آبائهم . أجل لم تهن هيبته ، ولكن عم أسفر ذلك التاريخ الطويل من الحزم والصرامة ؟، ها هو ياسين يتدهور ويضمحل ، وها هو كمال يناقش ويجادل ويحاول التملص من قبضته .

ـ أصغ الى بكل وعيـك ، لا أريد أن أقسو عليك فانك مؤدب ومطيع ، أما عن موضوعنا فلا أملك لك الا النصيحة ، وينبغى أن تذكر أنه ما من أحـد قد خالف نصيحتى وسلم ..

ثم بعد صمت قصير :

ـ اليك ياسين شاهدا عما أقول ، وقد نصحت قديما « المرحوم » بألا يلقى بنفسه الى التهلكة ، ولو امتد به العمر لكان اليوم رجلا نابها .

وهنا قالت الأم بصوت كالأنين :

ـ قتلوه الانجليز ، انهم اما يقتلون واما يكفرون !

وواصل السيد حديثه قائلا :

ـ اذا وجدت فى دروسك مايخالف الدين ، واضطررت الى حفظه كى تنجح فى الامتحان ، فلا تؤمن به ، ومن باب أولى لا تنشره فى الصحف والا حملت وزره ، ليكن موقفك من علم الانجليز كموقفنا من احتلالهم ، وهو عدم الاقرار بشرعيته ولو فرض علينا بالقوة الجبرية ...

تدخل الصوت الرقيق الحيى مرة أخرى قائلا :

ـ ولتكرس حياتك بعد ذلك لفضح أكاذيب هذا العلم ونشر نور الله ...

فصاح بها السيد :

ـ قلت ما فيه الكفاية دون حاجة الى آرائك !

فعادت الى ما بين يديها ، وجعل السيد يحدق فيها متوعدا حتى اطمأن الى صمتها ، فالتفت الى كمال متسائلا :

ـ مفهوم ؟

فقال كمال بلهجة موحية بالثقة :

ـ بكل تأكيد :

اذا أراد أن يكتب بعداليوم فعليه بالسياسة الأسبوعية حيث لا تمتد يدا أبيه الوفدى ، أما عن أمه فقد وعدها فى سره بأن يكرس حياته لنشر نور الله ، أليس هو نور الحقيقة ؟ ، بلى ، وسيكون فى تحرره من الدين أقرب الى الله مماكان فى ايمانه به ، فما الدين الحقيقى الا العلم ، هو مفتاح أسرار الكون وجلاله ، ولو بعث الأنبياء اليوم ما اختاروا سوى العلم رسالة لهم ، هكذا يستيقظ من حلم الأساطير ليواجه الحقيقة المجردة ، مخلفا وراءه تلك الليلة العاصفة ـ التى صارع فيها الجهل حتى صرعه ـ حدا فاصلا بين ماض خرافى وغد نورانى ، بذلك تتفتح له السبل المؤدية الى الله ، سبل العلم والخير

والجمال ، وبذلك يودع الماضى بأحلامه الخادعة وآماله الكاذبة وآلامه البالغة .. »

* * *

وتشهد خاتمة رواية قصر الشوق انهيار جميع معتقدات كمال من دينية وأخلاقية . فهو لا يمانع الآن فى احتساء الخمر بين الحين والحين . بل ونراه أحيانا يلم — وهو الرجل الحساس — بنساء أرغمتهن ظروفهن المادية القاسية على احتراف البغاء فى البيوت السرية . ويصور الأستاذ نجيب محفوظ هذا التحول فى سلوك كمال تصويرا نابضا بالحياة يقطر بالمرارة .

أما الرواية الأخيرة السكرية فيجرى فيها دائما ذكر كمال . بيد أن شخصيته فى هذه الرواية جامدة لا تتطور ولا تتغير الى نهاية الثلاثية . فهو معلم فى مدرسة ابتدائية يدرس الصبيان قشور اللغة الانجليزية . ورأسه الضخم الذى يعلوه الطربوش وتسطع فوقه نظارة من الذهب من تحتها شاربه ، ومعطفه الطويل ، كل ذلك يضفى عليه شيئا من المهابة . وهو لم يزل على مشايعته لسياسة الوفد ، ويكتب فى مجلة الفكر فصولا فلسفية ، وله صديق من الأقباط يحترف الكتابة . وهو وفدى مثله . وقد أجرى الأستاذ نجيب محفوظ على لسان هذا الصديق

القبطى كلاما له مغـزاه فى سـنة ١٩٣٨ (السـكرية ص ١٣٩) :

« قال رياض لكمال :

ـ ان الأقباط جميعا وفديون . ذلك أن الوفد حزب القومية الخالصة ، ليس حزبا دينيا تركيا كالحزب الوطنى ، ولكنه حزب القـومية التى تجعـل من مصر وطنا حرا للمصريين على اختلاف عناصرهم وأديانهم ، ولمـا كان أعداء الشعب يعلمون ذلك ، كان الأقباط هدفا للاضطهاد السافر طوال عهد صدقى وسيعانون ذلك منذ اليوم ...

ورحب كمال بهذه الصراحة التى تشـهد لصداقتهما بالكمال ، غير أنه راق له أن يتساءل فى دعابة :

ـ ها أنت تتحدث عن الأقباط ! أنت الذى لا يؤمن الا بالعلم والفن .

فقال رياض :

ـ انى حر وقبطى فى آن . بل انى لادينى وقبطى معا . أشعر فى أحايين كثيرة بأن المسيحية وطنى لا دينى ، وربما اذا عرضت هذا الشعور على عقلى اضطربت . ولكن مهلا ، أليس من الجبن أن أنسى قومى ؟ شىء واحد خليق بأن ينسينى هذا التنـازع ألا وهو الفنـاء فى القومية المصرية الخالصة كما أرادها سعد زغلول .

كان كمال يتمطق ويفكر وصدره يجيش بالعواطف .

كانت سحنة رياض المصرية الصميمة التى تذكره بالصور الفرعونية تثير تأملات شتى فى نفسه :

ـ ان موقف رياض له وجاهته التى لا تجحد . وأنا نفسى بين عقلى وقلبى شخص يعانى انقسام الشخصية . فكذلك هو . كيف يتأتى لأقلية أن تعيش وسط أغلبية تضطهدها ؟ وجدارة الرسالة السامية تقاس عادة بما تحققه من سـعادة للبشر تتمثل أول ما تتمثـل فى الأخذ بيد المضطهدين ...

وقال لرياض بصوت مسموع :

ـ لا تؤاخـذنى . فقد عشـت حتى الآن دون أن أصطدم بمشكلة العنصرية . فمنذ البدء لقنتنى أمى أن أحب الجميع . ثم شببت فى جو الثورة المطهر من شوائب التعصب فلم أعرف هذه المشكلة .

ـ المرجو ألا تكون ثمة مشكلة على الاطلاق . يؤسفنى أن أصارحك بأننا نشأنا فى بيوت لا تخلو من ذكريات سـود محزنة . لست متعصبا . ولكن من يستهين بحق انسان فى أقصى الأرض ـ لا فى بيته ـ فقد اسـتهان بحقوق الانسانية جميعا » .

ومن خلال أفكار كمال وحركاته ندرك أنه لم يحقق شيئا من طموح شبابه فقد فتنه ما يسميه المؤلفون بالعلم ولكنه أهدر حياته فلم يحقق فيها شيئا . ألم يصبح أنانيا

جبانا ضن بنفســه عن مسئوليات الحياة ؟ ألم يشاهد المظاهرات الدموية وســقوط القتلى سنة ١٩٣٥ وهو مختبىء داخل دكان كما فعل تماما وهو طفل سنة ١٩١٨ ؟

ومع هذا فهو عاطف على الآراء التقدمية . ويساعد ابنى أختــه فى ذلك الاتجاه . ولكنه لا يزج بنفسه فى المعركة (السكرية ص ٢٠٢) :

« لم يعد من الممكن أن يتعزى بالفلسفة ، أو يدعيها ، فليس الفيلسوف من ردد أقوال الفلاســفة كالببغاء . واليوم كل متخرج فى كلية الآداب يستطيع أن يكتب كما يكتب هو أو أحسن . وقد كان هنالك ثمة أمل فى أن يجمع ناشر مقالاته فى كتاب . ولكن لم يعد لمثل هذه المقالات التعليمية من قيمة تذكر ، وما أكثر الكتب هذه الأيام ، وهو فى هذا الخضم لا شىء . وقد مل حتى طفح بالملل ، فمتى يدرك قطاره محطة الموت ؟ »

انه يشك فى كل شىء حتى فى نفسه وفى أفعاله ، ورانت عليه خيبة الأمل والملالة . وسيفطن القارىء الى أن كمال كان ينشد مثلا أعلى غير المثل الأعلى الذى قامت عليه أسرته ، والذى لا يمكن أن يقنع شــابا مثله . وقد نشد ذلك المثل ولكنه لم يجد من يفهمه أو يعطف على طموحه وتطلعه . لم يجد فتاة تفهمه وتقدره وتحبه . فى حين وجد ياسين ـــ ذلك الثور الشهوان ـــ من تفهمه فى شخص

زنوبة . أما هو فوحيد مستوحش فى وسط أسرته .

لقد جُرحت الحيـــاة كبرياءه فى مطلع شبابه فانطوى على نفسه . ومن الغريب أن كلمة الكرامة لم ترد مرة واحدة فى الثلاثية كلهـــا عند ذكر كمال ، على كثرة ما استخدمها المؤلف عند ذكر سواه من الشخصيات ولاسيما أباه . مع أن هذا الاحساس بالكرامة لعله هو لباب عقدة كمال كلها ...

الأحفاد الثلاثة :
رضوان وعبد المنعم واحمد

لقد اتسعت الثلاثية فى مداها كله لتوضيح شخصية احمد عبد الجواد وأمينة وكمال وياسين وعائشة وخديجة من جميع النواحى فى فترة ربع قرن . أما الأحفاد الثلاثة فلم يبلغوا مبلغ الرجال الا فى نحو سنة ١٩٤٠ . فلم يتسع المجال فى الثلاثية لتوضيح شخصياتهم من جميع جوانبها . فهم شبان تبدو عليهم مخايل وتعقد عليهم آمال ولكن لا يتسع مجال الرواية لتحقق الوجه التام لكل شخصية من شخصياتهم .

وقد سبق لنا الكلام عن رضوان فى معرض الكلام عن والده ياسين وترقيته . وسنه تقارب سن ابنى عمته خديجة وهما عبد المنعم واحمد . والشبان الثلاثة طلبة فى الجامعة . وثلاثتهم يحضرون اجتماعات الوفد . وقد صور الأستاذ نجيب محفوظ عن طريقهم اتجاهات ثلاثة لدى شبان الجيل الجديد فى تلك الفترة ، فترة الحرب العالمية الثانية .

* * *

ولا نجد فى رضوان شيئا من صفات الثوار . وانما هو وصولى . وليست السياسة عنده مبدأ وانما هى مطية الى منافع ومغانم وعقد صلات نافعة .

والمؤلف يجعله يتردد على باشـا من رجال الأحزاب يسكن ضاحية حلوان . وهذا الباشا صورة غريبة لرجال من طرازه بين رجال السياسة ومحترفيها ومستوزريها فى زمنه . فنحن قرب نهاية الثلاثية نراه مزمعا السفر الى مكة للحج ، ونسمعه يقول لرضوان ولأحد أصدقائه فى خيلاء وسرور (السكرية ص ٢٨٦) :

« ــ أنتم أنسى . ما الحياة بدون المودة والصداقة ؟ الحياة جميلة . الجمال جميل . الطرب جميل. العفوجميل. أنتم شباب وتنظرون الىالدنيا من زاوية خاصة ، وسوف يعلمكم العمر الكثير ، انى أحبكم وأحب الدنيا ، وأن زيارتى لبيت الله للشكر والاعتذار وطلب الهداية .

فقال رضوان باسما :

ــ ما أجملك وما أجمل منظرك وأنت تقطر صفاء !

فقال على مهران :

ــ ولكن حركة صغيرة تجعله يقطر أشياء أخرى . حقا يا باشا انك معلم الجيل !

ـ وأنت ابليس نفسه يا ابن الهرمة ! اللهم انى اذا قدمت يوما للحساب فسأشير اليك وكفى ! »

فهذا الباشا لا يعرف فى حياته الا التفاؤل . وكذلك رضوان الذى يتخذه قدوته ... ولا يبالى بكثير من الاعتبارات فى سبيل الوصول ...

* * *

أما عبد المنعم فمن الاخوان المسلمين . وهو يبدو مؤمنا بتعاليمهم كل الايمان فجميع أوتار نفسه لا تخرج الا نغمة واحدة هى نغمتهم. وكل همه فى الدنيا استكمال ثقافته الدينية لاعتقاده أن الاسلام الحق مجهول من المسلمين وأنه لا صلاح لأحوالهم الا عن طريق التفقه فى الدين .

والمؤلف لا يتعرض لتعاليم الاخوان الا بمقدار ما تؤثر تلك التعاليم فى حياة الأسرة وبمقدار انعكاسها على سلوك عبد المنعم . فنرى عبد المنعم أولا منغمسا فى حضور دروس الدين وأحمد شقيقه الشيوعى يرمقه باستخفاف . وتنتهى تلك الدروس بأن يصبح كل كلام لعبد المنعم مشحونا باستشهادات بالقرآن والحديث ، مقتديا فى ذلك بمعلمه الشيخ . ويرخى لحيته شأن جميع الاخوان المسلمين.

ونرى عبد المنعم أيضا حريصا على الزواج المبكر وهو تلميذ ليصبح محصنا ويسلم له دينه ويتخلص من عذاب

غرائزه المستيقظة . وحينما تتربص له بنت الجيران على السلم المظلم التماسا لقبلة أو ضمة يثور بها ويعلنها بأنه لا يريد أن يراها من بعد (السكرية ص ١٠٩) :

« ـ اعترفى بأننا مخطئان . فلاينبغى أن نصر على الخطأ.

ـ عجيب أن أسمع منك الآن هذا الكلام .

ـ لا عجب . ان ضميرى لم يعد يتحمل الخطيئة . انها تعذبنى وتفسد على صلاتى . يجب أن يكون ما حصل درسا لنا فلا نعود الى مثله . انت صغيرة وقد أخطأت ، فلا تجرى مرة أخرى وراء الخطأ .

فقالت الصغيرة التى لم تبلغ بعد الرابعة عشرة فى نبرات باكية :

ـ لم أخطىء ، أتنوى هجرى ؟ ماذا تقصد ؟

ـ عودى الى بيتك . لا تفعلى شيئا ترين وجوب التستر عليه . لا تقابلى أحدا فى الظلام . »

* * *

وبعد ذلك يؤذن أبويه أنه لم يعد يطيق صبرا عن الزواج. وتدهش أمه خديجة وتحاول أن ترده (السكرية ص ١١٢) :

« ـ ما الداعى الى السرعة ؟ أعطنى مهلة . انها مسألة عام أو عامين ريثما تتخرج .

فعلا صوته وهو يقول :

ـــ أنا لا أهزل . دعيني لأبي فهو يفهمني خيرا منك !
فسأله أبوه بهدوء :
ـــ ما وجه السرعة ؟
فقال عبد المنعم وهو يغض بصره :
ـــ لا أستطيع البقاء دون زواج .
فتساءلت خديجة :
ـــ وآلاف الشبان أمثالك كيف يستطيعون ؟
فقال الشاب مخاطبا أباه :
ـــ لا أقبل أن أفعل ما يفعله الآخرون ! »

* * *

فالزواج بالنسبة لعبد المنعم بمثابة هروب من الخطيئة . ولا يعنيه من التي يتزوجها . فهي مجرد منفس حـــلال . ويفكر في نعيمة بنت خالته عائشة . وهي ضعيفة الصحة . بيد أنه لا يلقي بالا الى هذا . فهو في تعجله للزواج قاس في اندفاعه كالأعمى . وتموت نعيمة وهي تضع طفلها الأول الذي يموت بموتها . فيتزوج عبد المنعم على الأثر بابنة خاله ياسين من زنوبة . ولا تجدي اعتراضات والدته خديجة واستنكارها لمصاهرة العوادة السابقة .

ويكتظ حفل الزواج بالاخوان المسلمين من صـــحاب عبد المنعم . ويحلقون حول مائدة خاصة بهم . ويقف معهم ياسين برهة . ثم يقول لزوجته زنوبة :

ـــ ليتنى أبقى فى بوفيـــه الســيدات حتى لا أقف بين أصحاب اللحى الذين يخيفوننى !

ـــ لو عرفوا سيرتك لرجموك !

* * *

أما أحمــد فهو شيوعى متعصب يضــيق بآراء أمه البرجوازية عن الملكية والزواج وعفاف الحريم . ولا يتوانى عن مناهضة تلك الآراء . فحين تجرى سيرة فؤاد الحمزاوى مثلا وهو ابن وكيل متجر السيد عبد الجواد القديم ، نراه يدافع عن ذلك الرجل . فاذا قالت أمه أن الأسرة ذات فضل عليه ، قال ان فضله على الأسرة أكثر من فضل الأسرة عليه ! فلا غرابة أن تتهمه أمه بالجنون .

ويشترك أحمد فى تحرير مجلة يسارية متطرفة هى مجلة الانسان الجديد التى كان يطالعها منذ كان فى المدرســة الثانوية . وبعد حصوله على الليسانس يلتحق بتحريرها رسميا ويتعرف بمحررة شابة هى سوسن حماد . وتتوطد الصداقة بينهما .

وعن طريق أحمد يعرفنا المؤلف بالاتجاه الشيوعى بين شبان تلك الفترة . ونسمع سوسن حماد تعرض وجهــة نظر الشــيوعيين فى مناهضة حركة الاخوان المســلمين باعتبارهم اشــتراكيين طوبيين يحاولون اصلاح المجتمع باصلاح الفرد لا بالعكس . مع تجاهل الصراع بين الطبقات ،

ذلك الصراع الذى يعتبر أساسا للاشتراكية العلميـة .
وتنحى على الاخوان أيضا أصول مذهبهم الغيبية الميتافيزيقية وايمانهم بالملائكة والجن .

ونعرف من الرواية أن أحمد كاد وهو طالب فى الجامعة أن يتزوج طالبة مال قلبـه اليها . بيد أنها ردته بفتـور وصارحته أنها لن تقبل خطيبا دخله أقل من خمسين جنيها فى الشهر . وهو دخل خيالى فى سنة ١٩٤٠ بالنسبة لأى شاب مبتدىء . ويترتب على هذه النظرة الطبقية من الفتاة أن يزداد ايمان أحمد بالمبادىء اليسارية المتطرفة .

ويخرج أحمد مع سوسن حماد للنزهة ويفتح لها قلبه . فتفتح له قلبهـا ويعرف ان ماركسيتها نشأت من آلامها وفقرها فقد كان والدها عاملا فى مطبعة ، ومرت أسرتها بظروف عصيبة . (السكرية ص ٢٤٩)

« ــ من أدراك بأننى أوافق على الزواج من رجل مزيف مثلك ؟

ــ مزيف ؟

ففكرت قليلا ثم قالت باهتمام جدى :

ــ لست من طبقة العمال مثلى ! . كلانا يحارب عـدوا واحدا ولكنك لم تخبره كما خبرته ، لقد ذقت الفقر طويلا ، ولمست آثاره الكريهة فى أسرتى ، وغالبته أخت لى حتى غلبها فماتت ، أما أنت فلست ... لست من طبقة العمال !

فقال بهدوء :

ـ ولا كان انجلز من هذه الطبقة !.

فضحكت ضحكة قصيرة بعثت أنوثتها وقالت :

ـ كيف أدعوك ؟ . البرنس أحمدوف ؟ ! . هه ؟ .
لا أنكر عليك مبدأك ، ولكن لك بقايا بورجوازية عتيدة، يخيل الى أنك تسر أحيانا لكونك من آل شوكت ! .

فقال بلهجة لم تخل من حدة :

ـ أنت مخطئة يا ظالمة ! . لا يعيبنى ما ورثته ، فكما أن الفقر لا يعيبك فالغنى لا يعيبنى ، أعنى الدخـل القليل الذى عاشت به أسرتنا عيشة التنابلة ، لا يعيب أحدا ان يجد نفسه بورجوازيا ، ولا عيب الا فى الجمود والتخلف عن روح العصر ...

فقالت وهى تبتسم :

ـ لا تغضب ، كلانا ظاهرة طبيعية علمية ، لا نسأل عما وجدنا أنفسنا عليه ولكننا مسئولون عما نعتنق ونفعل ، انى أعتـذر اليك يا انجلز ، ولكن خبرنى هل أنت على استعداد لمواصلة القاء المحاضرات على العمال مهما تكن العواقب ؟ .

فقال بادلال :

ـ لقـد حاضرت حتى أمس خمس مرات ، وحررت منشـورين خطيرين ، ووزعت عشرات المنشـورات ،

وللحكومة دين فى عنقى جاوز العامين سجنا ! .

ــ ولها فى عنقى أضعاف ذلك ! .

مد يده بخفة فوضعها على يدها السمراء البضة فى حنان واعجاب . نعم انه يحبها ، ولكنه لا يندفع فى جهاده باسم الحب ، ترى لم تبدو أحيانا وكأنها تشــك فيه ؟ . أهى مداعبــة من المداعبات أم توجس خيفة من البورجوازية التى تحسبها كامنة فيه ؟ . انه مؤمن بالمبدأ كما انه مغرم بها ، لا غنى له عن هذا ولا ذاك ، أليس من السعادة ان تحظى بشخص يفهمك حق الفهم وتفهمه حق الفهم ؟ . وألا يحول بينك وبينه أى نوع من المكر ؟ . انى أعبدها اذ قالت « لقد ذقت الفقر طويلا » ، هذا القول الصريح الذى سما بها عن بنات جنسها جميعا ومزجها بنفسى ، لكننا محبون غافلون والسجن يتربص بنا ، وبوسعنا أن نتزوج وأن نتجنب المتاعب ونقنع برغد العيش ، ولكنها تكون حياة بلا روح ، لشد ما يبدو لى المبدأ أحيانا كأنه لعنة مضبوبة علينا من القضاء والقدر ، انه دمى وروحى ، كأننى المسئول الأول عن الانسانية جميعا ...

ــ أحبك ...

ــ ما المناسبة لهذا ؟ .

ــ فى كل مناسبة وبلا مناسبة ! .

ــ انك تتحدث عن الجهاد ولكن قلبك يتغنى بالهناء !.

ـ التفريق بين هذين سخف كالتفريق بينى وبينك ...
ـ ألا يعنى الحب الهناء والاستقرار وكراهة السجن ؟.
ـ ألم تسمعى عن النبى الذى كان يجاهد ليل نهار دون أن يمنعه من أن يتزوج تسعا ؟! .
ففرقعت بأصابعها هاتفة :
ـ ها هو أخوك قد أعارك فاه ، أى نبى يا هذا ؟ .
فقال ضاحكا :
ـ نبى المسلمين ! .
ـ دعنى أحدثك عن كارل ماركس الذى عكف على تأليف « رأس المال » تاركا زوجه وأبناءه للجوع والبهدلة!.
ـ كان متزوجا على أى حال ...
ـ ما دام كل شىء واضحا فلم تعذبنى ؟ .
فتنهد فى ارتياح عميق وقال :
ـ ما أبهج حبى ! .
وساد الصمت مرة أخرى كاللازمة بين النغمة والنغمة .
ثم قالت :
ـ يهمنى شىء واحد ! .
ـ أفندم ؟.
ـ كرامتى ! .
فقال كالمنزعج :
ـ هى وكرامتى شىء واحد ! .

فقالت بامتعاض :

ــ أنت أدرى بتقاليد أناسك ! . ستسمع كثيرا عن الأصل والفصل ...

ــ كلام فارغ ، أتظنيننى طفلا ؟ .

وترددت قليلا ثم قالت :

ــ لايهددنا الا شيءواحد هو « العقليةالبورجوازية »!

فقال بقوة جعلته فى تلك اللحظة أشبه ما يكون بأخيه عبد المنعم :

ــ لست منها فى شيء .

ــ هل تدرك مدى خطورة قولك ؟ ... لقد عنيت أشياء تخص علاقة الرجل بالمرأة فى صميمها الشخصى والاجتماعى ! .

ــ مفهوم جدا ...

ــ سوف تطالب بقاموس جديد عند الكشف عن الكلمات المأثورة مثل : حب ، زواج ، غيرة ، الوفاء ، الماضى ... ! »

* * *

وعلى الفور يطلع أحمد أسرته على رغبته فىالزواج . فتغتاظ أمه خديجة وترى شرفالأسرة كله مهددا بالزواج من ابنة عامل فى مطبعة . ويقف كمال الى جانب ابن اخته

مؤيدا ومشجعا فيتم الزواج ولا يحضره أحد . وعند ما يلتقي كمال بابن أخته أحمد بعد ذلك يسأله :

ـ وهل تزوجت على سنة الله ورسوله ؟

فضحك أحمد وقال :

ـ طبعا . الزواج والدفن على سنن ديننا القديم . أما الحياة فعلى دين ماركس !

* * *

والحقيقـــة ان كمال يشعر بميل خاص نحو ابن أختـــه أحمد واتجاهه اليسارى . فكمال هو الذى حدث نفسه من قبل قائلا :

ـ والشيوعية أليست تجربة جديرة بالاختبار ؟

وقصارى القول اننا نجد بيت السكرية وقد أمسى مكانا لاجتماعات متناقضة للاخوان وللشيوعيين . والأم خديجة تكاد تنشق من الغيظ لشذوذ ولديهـــا وخروجهما على ارادتها . فالوقت وقت حرب والانجليز يسيطرون على كل شيء . والاجتماعات السياسية وتوزيع المنشورات تهمتان تبرران الاعتقال . وذلك ماحدث فى ليلة واحدة للأخوين .

وهكذا يسدل الستار على الجيل الثالث من أسرة عبد الجواد . ونلاحظ ان هذا الجيل الثالث لم يتسع كما أسلفنا المجال أمام المؤلف للافاضة فى بسط شخصياته والوصول

بها الى غايتها من النمو . لأن الفترة التالية لم تدخل فى برنامجه بعد .

بيد أننا نلاحظ أن كلا من الأخوين برىء من هــذا الصراع أو الانقسام النفسى الذى كان يشل حياة كمال خالهما ويمنعه من المضى فى أى اتجاه .

* * *

وانا اذ نراجع هذه السطور نجد أننا لايمكن أن نكون قد أحطنا احاطة كافية بكل تلك الدقة السيكولوجية التى رسم بها المؤلف شخصياته الأساسية . فرسالتنا هذه أصبع تشير الى روعة ذلك العمل الأدبى ، وليست ذراعا تحيط به أو تطوقه . فهو عمل جميل متعدد الجوانب أكبر قدرا وأعمق غورا من أن تحيط به هذه العجالة . ولكن بقيت لدينا كلمات عن الجو العام لذلك العمـــل الأدبى الكبير سنضمنها الخاتمة .

خاتمة

ان الجو العام الذى يستخلص من ثلاثية الأستاذ نجيب محفوظ ليس من اليسير تحديده . اذ يبدو لأول وهلة أن المؤلف حجب شخصيته تماما وتلاشى أمام موضوعية الرواية . فهو روائى واقعى كل جهده منصرف الى رسم الواقع رسما أمينا فى قالب فنى . ولذا نجد بين شخصياته نماذج بشرية شديدة التباين . فهناك أحمد عبد الجواد وكمال . وهناك الحفيدان الشقيقان عبد المنعم وأحمد . هناك المؤمن والملحد . ولكل ملامحه وكيانه الخاص . ولذا يحق لنا أن نقول من أول نظرة أن الجو العام الذى يستخلص من مجموع الرواية هو جو الحياة نفسها .

والواقع أنه من المستحيل أن يتحاشى أى مؤلف تبين اتجاهاته صراحة أو ضمنا فى عمل من أعماله . فاذا أضفنا الى هذا أن ثلاثية الأستاذ نجيب محفوظ هى بداية حقبة جديدة متميزة فى الأدب العربى وفى تطور مصر الحديثة ، كانت لهذه الآثار قيمتها الكبيرة .

ونذكر أنه عند ما سئل نجيب محفوظ على لسان مندوب

مجلة آخر ساعة فى العدد الصادر يوم ٩ اكتوبر سنة١٩٥٧ عن آرائه السياسية ، قال عن نفسه أنه مناهض للرجعية . وأن المثـل الأعلى الذى يقترحه على الجيـل الحالى هو الاشتراكية . ولا شك أن مطالعة الثلاثية تكشف عن ميل المؤلف الى آراء كمال وابن شقيقته أحمد .

بيد أن الثلاثية ليست رواية هادفة . مثل رواية الأرض لعبد الرحمن الشرقاوى مثلا . ومع هذا فالثلاثية تسـيطر عليها كلها فكرة واحدة هى فكرة التطور التاريخى شبه الحتمى الذى يقتلع كثيرا من التقاليد التى كانت تبدو راسية. ويقوض صروحا من العرف كان يظن بها الرسوخ والشموخ. ولذا قال الأستاذ نجيب محفوظ فى حديثه الآنف الذكر بمجلة آخر ساعة أن بطل بين القصرين هو الزمن . فكل شىء فى بين القصرين وقصر الشوق والسكرية يتغير بحكم الزمن . فهل وراء هذا الاعتقاد فى التقدم والتطور نظرة خاصة الى التاريخ ؟

ان تغير كل شىء أمر واضح فى الروايات الثلاث كمـا هو واضح فى الحياة نفسها . والثلاثية كلها تنتهى وأمينة تعالج سكرات الموت . وفى الوقت نفسه ينتظر عبد المنعم طفلا تلده له ابنة خاله ياسين . ويدخل كمال وياسين دكانا، فيشترى كمال رباط عنق أسود . فى حين يختار ياسـين قماطا وطاقية ومنامة . وتناول كل لفافته وغادرا المكان .

وهذا رمز واضح الى مصير البشر كافة . فالنبتة الصغيرة تنبثق حيث صرعت العاصفة الدوحة العتيقة .

وليس هذا كل شيء . فبين سطور الثلاثية كلها تلمح تقززا من الماضى ورغبة قوية فى التخلص منه . فالتحرر من الاحتلال الاستعماري يجب أن تصحبه أنواع أخرى من التحرر . والعبرة التى يستخلصها كمال من حياته المترددة ومن القاء القبض على ابنى أخته أشبه شيء بالاعتراف الصريح والتوصية بالاتجاه الجديد ، وذلك حيث يقول انه لاقيمة للحياة ما لم يصحبها عمل ايجابى . وهذا القول الصريح يدمغ كل حياة أنانية يحياها من يعيشون لأنفسهم فحسب . ويدمغ حياة العزوبة التى يعيشها كمال قانعا بثقافته وأفكاره الخاصة عن كل عمل أو اشتباك أو مسئولية . ولا يعفيه من الملام أنه عاطف على أنشط حركة سياسية وطنية عرفتها الأحزاب المصرية وقتئذ .

وهذا القول هو الذى يفسر لنا الاتجاهين المتضادين اللذين سار فيهما الشقيقان عبد المنعم واحمد . ويفسر لنا ويبرر مظاهرة وتأييد كل حركة قومية تخرج مصر من ماضيها الذليل وتمنحها القوة لانتزاع الشعب من حالته التى لا يمكن أن ينقاد لها انقيادا أبديا .

وهذا هو السبب فى أن القراء على اختلاف آرائهم

ومذاهبهم لا يجدون ما يصدمهم عندما يقرأون الثلاثية . فآراء أى شخصية من شخصياتها تؤول على أنها آراء خاصة بتلك الشخصية ولا يقدمها لنا المؤلف باعتبارها مثلا أعلى يقتدى به .

ولا تخلو الثلاثية مع ذلك من شعور بالقيم العائلية الى جانب النزعة الاشتراكية . فذلك التوضيح الكامل لمغبـــة الطلاق والانكباب على الشهوات انما هو كفاح ايجابى نحو مثـــل أعلى عائلى . أما التساند والتضامن العائلى فيبدو عند المؤلف ضربة لازب لا مناص منها . فأحمد الشيوعى يجحد ذويه باللسان ولكنه يعيش معهم بالفعل . وحين قبض عليه خف الجميع لمساعدته وصارت الأسرة صفا واحدا . ومع أن سوسن حماد قالت له حين تزوجته أنه يجب أن ينسى المعنى التقليدى لكلمة أسرة . الا أن هذا المعنى كان فيما يظهر أعمق فى وجدانه من أن ينسى بهذه السهولة .

وهذه الروايات الثلاث روايات مفتوحة ، لا يعتبر ختامها نهاية لأبطالها . ولهذا سيمكن القول فيما بعد عندما تحدث تطورات جديدة فى مصر أن المؤلف توقع هذه التطورات فى ثلاثيته . وأنه صـــور أزمة المخاض المصرى لولادة مستقبل جديد والتخلص من المـــاضى

العتيق . وهي أزمة أليمة رائعة خاضتها مصر فعلا فى مدى ربع قرن . ويمكن أن تعتبر فيهـا الكرامة حجر الأساس فى سلوك الأفراد وفى سلوك الآمة . وهى تتطلع الى يقظة كاملة شـاملة تجعل حياتها الانسـانية أرقى وأعمق .

ومن أجل هذا كله تعتبر الثلاثية فى نظرنا عملا جديرا بالتنويه به فى خارج البلاد العربية كى يعرفه الأجانب ، وكى يعرفوا روح مصر عن طريقه .

چاك جوميه
Jacques Jomier

يناير سنة ١٩٥٨

هذا هو الإنسان

تذييل يقوم مقام التقديم

بقلم

الدكتور نظمى لوقا

شيء فى أسلوب نجيب محفوظ يذكرنى بهرم الجيزة الأكبر ! ولست أعنى الرصانة والمتانة والضخامة والمهابة وحدها ، بل أعنى شيئا أثمن من ذلك كله وأدل على الجبروت الفنى ، وان كان خافيا على جمهرة الناس : وتلك هى « الهندسة الداخلية » التى تغنى عن الملاط بأنواعه .

أحجار الهرم الأكبر الهائلة ليست متماسكة بملاط ، وانما الذى يشد بعضها الى بعض هو هندستها الداخلية ، والتوازن الدقيق ، والحصافة فى الوضع ، والحجم ، والثقل ، بحيث تقوم قوانين الطبيعة الفطرية الأصلية مقام الروابط المصطنعة .

وأسلوب نجيب محفوظ تتسق فيه العبارات ، راسية ، مهيبة ، ولا تجد بينها اسما موصولا فى أكثر من عشر مواضع من ثلاثيته التى تزيد على الألف صفحة من الحرف الدقيق ! فلا الذى ولا التى ولا سائر اخوتهما الذكور والاناث . ولم أجد أحدا فطن الى ذلك . بل وقعت ملاحظتى موقع الدهشة من كل من ذكرتها له . وهذا فى حد ذاته دليل على أن الهندسة الداخلية للبناء التعبيرى عند نجيب غانية فعلا عن هذه الروابط ، وهى وقفة تستحق التريث عندها .. فما هى بالظاهرة الشكلية . لأن كاتبا فى مرتبة نجيب محفوظ لا يتخذ أدواته ارتجالا ولا اعتباطا ، بل يتخذها عن بصيرة .

عبارات ترتبط من داخلها ، لا بظاهر ألفاظها .

لأن الصور والنغمات النفسية لا تعتمد على الارتباط الذهنى ، بل ترتبط فيما بينها برباط الحياة ذاتها ، الذى يكفل لها « كلا واحدا » مهما تباينت المظاهر وتشعبت المسالك .

« الشخصية الحية » .

هذا هو مفتاح فن الرواية عند نجيب .

الشخصية الحيـــة بحيـــاة كاملة ، عميقـــة ، تجيش بالانفعـــالات ، والرغبات ، ولا تنقصها النوازع ، ولا تخنقها الكوابح ، وتتسم بالخصوصية فى أعماقها وفى ظاهر أمرها على السواء .

هذه الشخصية الحيـــة لا يمكن أن تحس بهـــا دمية يحركها صاحب الأراجوز ، أو مدير مسرح العرائس ، انها ليست مخلوقا ذهنيا خاويا من حرارة العاطفة وحرارة الدماء والأعصاب . انها ليست زهرة صـــناعية جميلة لطيفة بارعة نظيفة .. كلا ! انهـــا نبات حقيقى جذوره ملطخة بالطين لأنها نابعة منه ، وفى ساقه عصارة لزجة ، وعلى أوراقه آثار آفات وحشرات . لأنه حى ، يحمـــل كل خصائص الحياة ، ويخضع للضريبة التى يؤديها كل حى ، وهى الافتقار الى الكمال الذى تزهو به المخلوقات الذهنية التى لا تنبض بالحياة !

هذا هو نجيب فى رواياته : مصور الحياة الصادق ، وباعثها المبدع الأمين ...

فهل هذا هو نجيب الذى كتب المستشرق الفاضل هذا البحث عن ثلاثيته ؟

انه هو ، وليس هو !

فنجيب من حيث نظر اليه المستشرق الفاضل ، قمة تتراءى لعينى رجل نشأ فى مواطن القمم الشوامخ ، وألف الأعلام من كتاب الرواية فى شتى أمم الغرب ، وفى سائر عصوره .

أما نجيب ، من حيث ننظر اليه ، أى من حيث هو ظاهرة أدبية مصرية عربية ، فقمة شامخة فى سهل من الأرض منبسط أو شبه منبسط !

هذه هى القيمة الحقيقية لنجيب عند أهل اللسان العربى : انه فرد فذ ، ونابغة غير تابع ، وان كنا نرجو أن يكون متبوعا بآحاد غيره من النابغين فى يوم غير بعيد .

فليست قيمة ثلاثيته انها تصور ما يسترعى نظر الأجانب من حياة أسرة قاهرية فى ربع قرن من الزمان .. فكم للتصوير من طرق وأساليب وفنون . أما فن نجيب محفوظ فى تصوير تلك الأسرة ، فشىء أهم بكثير من تلك الأسرة ، وأحداثها ، وأفرادها ، وعصرها .. فمثل

هؤلاء ألوف وملايين عاصروهم . ولكن أين هم ؟ وأى قيمة باقية لهم ؟

لا شيء ! لأن فنانا عبقريا كنجيب محفوظ لم يلمس ترابهم الفانى ، ليبعث فيه نبضة الحياة الخالدة ، حيـــاة الفن الصادق !

ألوف كهؤلاء ماتوا أو سـيموتون ، فلا يبقى منهم شيء . وهم فى حياتهم ليسوا شيئا ـ من وجهة نظر الفن على الأقل ـ لأنهم لم يخرجوا من شق قلم كقلم نجيب محفوظ . فهل يقال بعد هذا ان حيـــاة هؤلاء النفر هى التى منحت فن نجيب محفوظ تلك القدرة الحيوية ؟ وهل يصدق أن نجيب كاتب عظيم لأنه نقل عن الحيـــاة أو استلهمها ؟

ألوف غيره استلهموا الحياة أوحاولوا أن يستلهموها.. ولكن ليس هناك الا نجيب محفوظ واحد ..

هذه اذن هى الحقيقة التى لا ينبغى أن يحيد عنها أو يروغ من الاقرار بها منصف محب للفن والأدب والحقيقة معا : ان نجيب محفوظ كاتب خالق ، يخلق الحياة ، قبل أن يستلهم الحياة . يخلق الحياة خلقـــا فى النماذج التى يتناولها من مستودع الواقع ، فيحولها من أمشاج فانية ، الى أنماط باقية ، ما بقى فى انسان احساس بالفن الجميل .

هذه هى حقيقة نجيب التى تفــرد بها بين الروائيين

العرب ، فاستحق مرتبة الخالق بين الصناع الذين قد يبدعون الصورة الذهنية ، ثم تفوتهم نبضة الحياة ..

وصدق والله الشاعر الملهم الذى قال :

« الفن » من نفس الرحمن مقتبس

و « الكاتب » الفذ بين الناس رحمن !

* * *

ووقفة أخرى أقفها عند هذا البناء الفنى الشامخ أمام تلك البلزاكية التى كثيرا ما روعتنى بموضوعيتها المغرقة .

شخوص كلها حى ، على تباين فيها شديد . والمؤلف لا يحابى صالحا منهم على طالح ، ولا تحس فيه ميلا عن جانب مقزز الى جانب مشرق . فكل شخوصه تنال من قدرته الخالقة حظا متساويا لا ضن فيه ولا تحيف ...

ولست أنكر انى أجفلت فى بداية الأمر ، ثم لم ألبث ان انسقت مع تياره الجارف فلم ألق الى ذلك بالا ، وانتهى بى الأمر الى استطابته ، وقد أدركته على وجهه : أدركت ما فى نجيب محفوظ من طبيعة الأرض القوية ، تلك الأم الكبرى التى تنبت الشوك والحب والفاكهة فى مستوى واحد من القوة والامداد بالعصارة الحية ، التى تخول لكل نابتة أن تأخذ مداها الطبيعى كاملا ، فى نطاق نوعها الخاص

بها ، طيبا كان أو خبيثا ! فالكل عنـــد تلك الأم الكبرى سواسية لا تفرق بين أحد منهم ...

وكذلك نجيب محفوظ فى موضوعيته الفذة . بيد انها موضوعية لا تخمد طاقة الشاعر الوجدانية فيه ، فنراها تطل من وراء نســيج عباراته متألقة متقـــدة ، انظر اليه يقول :

« أسبلت المساكن جفـــونها وأقفرت الطرقات الا من نسمة شاردة أو ضوء مصباح مهموم ... أما الصمت فقد خلا له الجو فتاه ونشر جناحيه ... »

ثم انظر اليه يقول على لسان كمال يحدث نفســه فى حفل زواج حبيبته :

« ستضيع منك مناظر ما أخلقها بالتسجيل لتكون زادا لألمك الشره ... أليس من المحزن أن يسد مجرى حياتك رجل لا شأن له كهذا المأذون ؟ ولكن دودة حقيرة هى التى تأكل جدث أكبر الكبراء ! »

فبأى وجه يجسر متبجح على التشدق بالتشبيه البليغ ، وكل تشبيه لفظى لا يصدر عن طبيعة الاحساس الداخلى بالموقف النفسى انما هو تهريج سمج يثير الاشمئزاز ...

هذه هى البلاغة الحقيقية ، وهذه هى الطاقة الشعرية الحقيقية التى تكاد تجعل من كل سطر قصـــيدة بارعة ، جديرة أن تحنى أمامهـــا هامات من يتمسحون بجـــزالة

الأسلوب، ويتخذون لها عدة هزيلة من اللفظيات السطحية. فشتان بين الخرز البراق والماس الألاق !

***

وبعد ...

فقد كان المفروض أن تكون هذه السطور فاتحة للبحث لا تذييلا له . لولا انى تهيبت كتابتها طويلا ، لأن قدر نجيب عندى أجل من أن ينهض ببيانه كلم موجز كهذا الكلم . ولكنى استخرت الله وتحديت القصور عما للكاتب العظيم فى نفسى من حب واعزاز ، فلم تدرك كلمتى البحث فى المطبعة الا وهى ذيل له .

وليس بد أن أترك القلم الآن ، وأنا شديد الاحساس بالتخلف عن ايفاء نجيب حقه من الاكبار والاعزاز والشكران له على ما أولانى ــ وقراء العربية ــ من متعة عظمى وفخر باق وثراء فنى طائل .

وماذا عساى مستطيع لك يانجيب . جزاء على هذا كله؟

قصاراى يا نجيب أن أضع على صدرك ، فوق موضع القلب منك ، قبلة خاشعة .

أجل ان القبلة شىء صغير ، ولكن القبلة ــ يا محب الحياة ومبدعها ــ شىء حى ... وذلك حسبها عندك وعند كل انسان حق من قيمة وحسبها من جزاء ...

مصر الجديدة	دكتور نظمى لوقا
يناير سنة ١٩٥٩	من دقيق الارض


مكتبة مصر

مؤلفات

الأستاذ نجيب محفوظ

		الطبعة الأولى	الطبعة الثانية	الطبعة الثالثة
مصر القديمة	(مترجم عن الإنجليزية)	١٩٣٢		
همس الجنون	مجموعة أقاصيص	١٩٣٨	١٩٥٨	
عبث الأقدار	قصة تاريخية	١٩٣٩	١٩٥٨	
رادوبيس	« «	١٩٤٣	١٩٤٦	١٩٥٨
كفاح طيبة	« «	١٩٤٤	١٩٤٧	١٩٥٧
القاهرة الجديدة		١٩٤٥	١٩٥٣	١٩٥٨
خان الخليلي		١٩٤٦	١٩٥٤	١٩٥٨
زقاق المدق		١٩٤٧	١٩٥٥	١٩٥٧
السراب		١٩٤٨	١٩٥٨	
بداية ونهاية		١٩٤٩	١٩٥٦	١٩٥٨
بين القصرين	رواية من ثلاثة أجزاء	١٩٥٦	١٩٥٧	
قصر الشوق		١٩٥٧	١٩٥٧	
السكرية		١٩٥٧	١٩٥٨	



الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي بالفجالة
تليفون ٥٨٩٢٠

الثمن ١٠ قروش